# القديس غريغوريوس النزينزي

تأليف

پول چالای

نقله عن الفرنسية

الأب ج . عقيقي اليسوعي

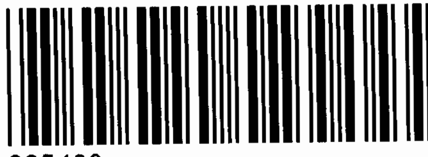


منشورات المعهد

المعادي

# القديس غريغوريوس النزينزي





# القديس غريغوريوس النزينزي

تأليف

بـول جـالاى

نقله عن الفرنسية

الأب ج . عقيقى اليسوعى

منشورات المعهد

المعادى

نصرّح بطبعه

† إسطفانوس الأول

بطريرك الكرسى الإسكندرى وسائر
الكرازة المرقسية للأقباط الكاثوليك

فى ١٩٦٢/٣/١٤

## مقدمة

ندر في الأدب العالمى ، بين البشر ، من تكلموا عن أنفسهم بهذه البساطة التى تكلم بها أبو الكنيسة هذا عن نفسه ، حتى إننا لا نرى فيه اللاهوتى العالم ،الرصين، فحسب ، بل نرى فيه فى الوقت نفسه رجل الصدق الذى يتخذ قارئه فى كل فرصة موضع سره . . .

وسيرة حياته هى أوسع مؤلفاته ، وهى منظومة شعراً ، لأنه كان شاعراً — فهو يحدثنا من خلالها بشعره ، ورسائله ، وخطبه جميعاً ، عما يعمل وعما يحتمل .

وقد وصل إلينا من مؤلفاته ٤٥ خطبة و ٢٤٥ رسالة ، وعدد عظيم من القصائد تفضى إلينا جميعها بالحقيقة المسيحية ، كما استساغها أعظم عقل ، وتأملها أعظم قديس ، وتدلى إلينا بمعلومات واسعة عن المؤلف وعن لطافته الفائقة .

# أسرة غريغوريوس

ولد غريغوريوس سنة ٣٢٩ أو ٣٣٠ من التاريخ المسيحى ، إما فى مدينة نزينز فى الجنوب الغربى من كبدّوكية ، وإما فى قرية بجوارها تدعى أرْيَنز ، وكان لأسرته فيها مزارع . وقد خلّد على الأجيال ذكر هذا الوطن الصغير الذى كان يحبه كثيراً — فمن كان يذكر اليوم نزينز لو لم يسمّ باسمها أب من أشهر آباء الكنيسة ؟

وقد أسهم غريغوريوس فى شهرة مسقط رأسه ، إقليم كبدّوكية الذى قدم للعالم كله فى الجيل الرابع ثلاثة من أنبغ آباء الكنيسة ، وقد اشتهروا بلقب « الكبدوكيين العظام » : باسيليوس القيصرى ، وشقيقه غريغوريوس النيصّى ، وصديقهما غريغوريوس النزينزى . فبفضل هؤلاء الثلاثة دخلت كبدّوكية فى التاريخ ، على بعدها عن العاصمة ، وانعزالها فى الطرف الشرقى من آسيا الصغرى ، على حدود أرمينيا الصغرى . وحرمانها من منفذ إلى البحر . وليس فى موقعها ما يؤهلها للتفتح والتقدم .

ومع ذلك فقد كانت الثقافة اليونانية فى الجيل الرابع المسيحى قد

تغلغلت فى الكبدوكيين . ولم تكن مثل أسرة غريغوريوس النزينزى وباسيليوس القيصرى لتتراجع أمام أية تضحية لتضمن لأبنائها أرقى تربية ، مع إقامة طويلة فى أعظم بيئات العلم العصرية . وهذا دليل على أن ما كان يُتَّهم به الكبدوكيون القدماء من الغلاظة والخشونة قد زال .

وكان باسيليوس وغريغوريوس فيما يلقيانه من المواعظ على الشعب ، وفيما يبعثان به من الرسائل إلى أصدقائهما ، يسلكان فيه على ما كان يسلك عليه أدباء عصرهما من الأساليب البليغة .

وكانت كبدّوكية أرضاً مسيحية ، قد بشر بولس فى كثير من مدنها : فى إيقونيا ، ولستره ، ودربى ، من إقليم ليكاؤنيه فى التخوم الغربية . وأتى القديس بطرس فى رسالته الأولى على ذكر مسيحيين فى كبدوكية ، كانوا من الرعيل الأول . أما التبشير العميق والنهائى فهو من عمل غريغوريوس العجائبى فى الجيل الثالث . فكانت كبدّوكية فى الجيل الرابع مسيحية ، بحيث يقول غريغوريوس النزينزى عن إيمان الكبدوكيين : إنه أمر معروف ، لا يرتاب فيه أحد .

وكانت نونّا أم غريغوريوس متأصلة فى مسيحيتها : من تقوى فى الصلاة ، ورزانة فى الكنيسة ، ومحبة للفقراء ، وإماتة للنفس ، ونفور من الكذب . هذا ما طاب لابنها أن ينوه به عنها . أما أبوه وسميّه ، ويلقب

بغريغوريوس الشيخ، فلم يكن مثل نونّا مسيحيّ المولد ، بل ظل حتى تقدم فى السن تابعاً لبدعة يهودية — وثنية تعبد العلىّ . وكان معروفاً بين مواطنيه بنزاهته واستقامته، فقدروا ذلك فيه، حين تسلم منصباً عالياً فى بلدية نزينز . وهدته صلوات نونّا ونصائحها وأمثلتها ، رويداً رويداً ، إلى المسيحية .

وفى سنة ٣٢٥ حدث أن غريغوريوس الشيخ ، وكان يرفض دائماً نصح زوجته بأن يرتل المزامير ، قد حلم أو خيل له أنه كان يرتل المزمور ١٢٢ : « فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب ننطلق . . . » ولما سمعت نونّا حلمه ، زاد إلحاحها عليه ، فقام بالمسعى الحاسم . وكان لاهتدائه صدى بعيد لشهرته فى مدينته الريفية .

وفى سنة ٣٢٩ ، وقد مضى على عماده نحو أربع سنوات ، انتخب أسقفاً على مدينة نزينز ، فانتقل من الحالة العلمانية إلى الأسقفية رأساً ، بدون أن يتوقف فى الحالة الكهنوتية البسيطة؛ فذلك، وإن لم يكن عاديا، كان فى الجيل الرابع ممكناً . وقد حدث أعجب من ذلك فى ميلان سنة ٣٧٤ ، حين رقّى أمبروسيوس إلى درجة الأسقفية ، ولم يكن إذ ذاك إلا طالباً للعماد . فانصرف أسقف نزينز الجديد ، وعمره ٤٦ سنة ، إلى درس الكتب المقدسة حتى يصير أهلا لتعليم الدين الحقيقى .

ظل غريغوريوس الشيخ ونونّا وقتاً طويلا بدون أولاد حتى وُلدت

لهما غورغونيا ، ثم ولد من بعدها غريغوريوس وسيزير . فهذان الأخيران قد ولدا فى مدة أسقفيّة والدهما ؛ إذ أن العزوبة الكنسية مسألة تنظيمية ، تنوعت فيها أحكام الكنيسة بحسب الأزمنة والأمكنة . فكان أكثر الأساقفة فى ذلك العصر عزّابا ، وكان غيرهم متزوجين وآباء عائلة ... فكانت تربية غريغوريوس الأولى مسيحية صميمة ، وقد فكر فى الانقطاع إلى الله مبكراً . ويقول لنا إنه منذ أخذ يحسن التمييز بين الخير والشر هام بحب التبتل ، لحلم رأى فيه عذراوين : العفة والقناعة تدعوانه ، إلى الصعود معهما حتى بهاء اللاهوت .

( شعر ٢ ، ١ ، ١٥ )

## غريغوريوس الطالب

كان لازماً ، لمنفعة الكنيسة ، أن يكتسب غريغوريوس ثقافة دنيوية متينة . وكان والداه يدركان ، فى ذلك الجيل الرابع — وقد بلغ فن الخطابة تلك المكانة العالية — أن أفضل الوسائل إلى خدمة الله أن يجمع ولدهما إلى دراسة الكتب المقدسة كل ما عند المثقفين من المعارف . فإن هيبة المسيحية تقتضى بأن يمثلها ، أمام الوثنية ، وهى لا تزال قوية ، رجال لا يكونون دون أرقى الوثنيين ثقافة ونجابة . وكان غريغوريوس يشارك والديه فى هذا الرأى ويقول :

« أولعت بالأدب ولما يخطّ عذارى ؛ وأردت أن أكتب الفاسد لأبلغ به إلى الصحيح » . وهو يقصد بكتابة الأدب الفاسد الثقافة الدنيوية ، وكانت لا تزال وقفاً على الوثنيين ، ويقصد بالأدب الصحيح التعليم المسيحى .

لما أتمّ غريغوريوس ما يمكن اقتباسه فى نزينز ، مضى يتأدب تباعاً فى قيصرية كبدوكية ، وفى قيصرية فلسطين ، وفى الإسكندرية ، ثم مضى إلى أثينا . هذه المدينة ، أثينا الذهبية كما يدعوها ، هى التى أثرت

فيه التأثير كله . ففيها أقام أكثر أيامه ، وأطال مدة دراسته ، حتى سن الثلاثين . وهناك شيء يدل على ما حفظ من ذكرى حياته الدراسية : فكان قد تجاوز الخمسين ، وقد أصبح أسقفاً ، ورأس مجمعاً مسكونيًّا ، ولم يخش أن يروى ، علانية فى إحدى عظاته ، كيف يحتفل طلبة مدارس أثينا باستقبال زملائهم الجدد . . .

نال غريغوريوس ، خلال دراساته ، ولاسيما فى أثينا ، ما يلزم لأن يصير خطيباً ، إذ كان للبلاغة منزلة خطيرة فى ذلك العصر ، وكانت تلك الدراسات تحتمل التعمق البعيد فى درس الأدب الإغريقى ، والإقبال على الفلسفة ، مع ملامسة للعلوم ، بحيث تهيئ لمعلم المستقبل أن يتخذ عند الضرورة أمثلة من الأمور الطبيعية . فأصبح غريغوريوس خطيباً ، وأصبح شاعراً ؛ وإذا عمد يوماً إلى الشعر ليعبر به عن شعوره وعن عواطفه الدينية ، أو عن سروره وآلامه ، بلغة هومير والشعراء الفنانين ومؤلفى المآسى ، فلأنه استساغ أدبهم مدة حياته الدراسية . وقد أولته أثينا منّة أخرى وهى صداقة باسيليوس ، وكان مثله كبذوكيًّا من قيصرية ، قد وصل إلى أثينا بعد قليل من وصول غريغوريوس إليها . وظل بعد عشرين سنة يقول ملمحاً إلى سنى الدراسة : « بينما كنت أبحث عن البلاغة ، وجدت السعادة ، وكأنما قد جرى لى ما جرى لشاول ، فبينما هو يفتش عن حمر أبيه ، إذ لقى عرش الملك ، وربح شيئاً ثانويًّا أعظم قيمة من الشيء الأصلى » .

لمع باسيليوس وغريغوريوس فى الدروس حتى أرادت الأكاديمية أن تبقيهما فى أثينا لتدريس الآداب . ولكن الصديقين كانا قد عزما على وقف حياتهما على خدمة الله . أما باسيليوس وقد كان رجلا عمليًّا حازماً ، فسافر دون أن يؤثر به إلحاح أساتذته وزملائه . وأما غريغوريوس فأذعن أول الأمر ، لما هو عليه من الإحساس وشدة الانفعال ، لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وسافر سرًّا .

## تأمل أم عمل ؟

عاد غريغوريوس إلى نزينز حوالى سنة ٣٥٨ ــ ٣٥٩ تلبية لرغبة مواطنيه . فألقى أولا بعض دروس فى الخطابة ، ثم فكر أن ينفذ ما كان قد عزم عليه من تخصيص ذاته بالله . فأية طريقة رهبانية يتبع ؟ هنا بدت له الصعوبة . كان يريد أن يتبع أفضل الطرق للوصول إلى الله . لا أفضلها فحسب ، بل « أفضل الأفضل بينها » . أيختار حياة التأمل كنساك مصر ؟ إنه يقدر جمال تلك الحياة ، غير أن الإقامة فى الصحراء تقتضى التخلى عن كل شيء ، حتى عن الكتب ، فيستحيل على الزاهد أن يدرس كلام الله نفسه ، وهذا ما لا يريد غريغوريوس أن ينقطع عنه . . . وكان يرى نفع الآخرين فى المسيحية واجباً جوهرياً فكيف به وهو ملزم أن يحوط أبويه الشيخين بعنايته . فأقام معهما ، ورضى أن يعنى بأملاك أبيه فى أرينز . فأعدّ له فيها خلوة كان ينصرف إليها للصلاة ، ولدرس الكتب المقدسة ، وممارسة أشد ضروب الإماتة . . . وأقام ، أثناء ذلك ، مدة فى دير كان قد أسسه صديقه باسيليوس فى ناحية بنطس ، شمالى كبدوكية . ولكنه لم يمكث فيه حتى لا يفترق أبداً عن أبويه .

# كاهن على رغمه

أى على رغم اعتقاده بنفسه أنه غير أهل لهذه الدرجة

كان لغريغوريوس أن يتصور أنه وجد الحالة التى توافقه . ولكنه منذ نهاية سنة ٣٦١ أو بداية سنة ٣٦٢ أخذ يعانى ما يسميه « عاصفة رهيبة » .لقد رَسَمَ أسقف نزينز ابنه كاهناً، فى يوم عيد، برضى الشعب . رُسِم غريغوريوس كاهناً على رغمه .

وقد قال : « كان عندى للكهنوت كل إجلال ، ولكنى كنت أتجنبه كمن يتجنب النظر إلى الشمس ، لما عنده من ضعف البصر ، ولقد كنت أتوقع كل شىء إلا هذا » ، فلنستمع إليه يروى لنا وقع ذلك فى نفسه :

« لقد تألمت كثيراً من هذا العسف ، حتى تملّصت فجأة من كل شىء ، من أصدقائى ، وأقاربى ، ووطنى ، وهربت إلى بنطس كثور نكزته نُعرة ، لأداوى وجعى بالقرب ممن يستحق لقب الإلهى صديقى باسيليوس » .

إن حكم غريغوريوس على نفسه بأنه غير مستعد للكهنوت هو

خوف يشرّفه . غير أن لهربه سبباً أبعد مما ذكر . فقد كان يظن أنه مدعو لكي يخدم الله بالنسك والتأمل ، ودرس الكتب المقدسة ، وخدمة الآخرين ، ولكن فى جو رهبانى . أما أن يصير كاهناً فهذا مما يبعده عن الحياة الرهبانية ، ويقصره على خدمة كنيسة ، ويجعله فى حال تخالف المثال الذى اختاره . ليس لنا أن نلوم غريغوريوس على اختياره حياة رهبانية تأملية ، ولكن لنا أن نأسف ، لأنه لم يقبل سريعاً أن يضحى بأمياله الشخصية فى سبيل النفوس ، ولنا أن نلومه ولو قليلا ، إذ لم يرَ فوراً الدليل على إرادة الله فى إرادة أبيه ، وفى رغبة شعب نزينز الذى يريده كاهناً له . ولكن لانكثرنّ اللوم ، فإن الهارب لم يطل غيابه إلا بعض أسابيع ، ولم يصبر طويلا على فراق أبيه . فلم يقترب عيد الفصح من سنة ٣٦٢ حتى كان عند أبيه يعاونه فى إدارة كنيسة نزينز .

إن أسقفية نزينز على صغرها ، قد كان لأسقفها ، ولابنه بعد سنوات ، دور خطير فى حدث مهم كان يتعلق بموقف المسيحية فى كبدوكية . فقد مات سنة ٣٧٠ أسقف قيصرية وهى عاصمة الإقليم المدنية ، ومركز رئيس أساقفته . فاعتقد غريغوريوس الأسقف الشيخ وابنه غريغوريوس الكاهن ، بكل صواب ، أن أجدر من يخلف الأسقف الراحل هو باسيليوس ، وهو كاهن من قيصرية وعضو من أكليروسها ، غير أن بعض أساقفة الإقليم كانوا يعارضون فى انتخاب باسيليوس . وقد يُجلسون على هذا الكرسى الرفيع من ليس أهلا له ، أو من كان مشتبهاً فى تعليمه ،

لأن الأريوسية ، بمتعدد صورها المشتطّة والملطّفة كانت تنقض أسس الإيمان بإنكارها لاهوت الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس .

فأغفل الأساقفة المجتمعون فى قيصرية دعوة الأسقف غريغوريوس الشيخ ،وأرادوا منعه من الحضور. فانبرى لهم غريغوريوس النزينزى باسم أبيه وكتب رسائل صارمة ، ووجه توصيات حازمة ، مطالباً بانتخاب باسيليوس . ولما كان لا يزال ينقصه صوت واحد ، هبّ غريغوريوس الشيخ بالرغم من أمراضه ، وسنه ٩٠ سنّة ، فحمل فى محفة إلى قيصرية ، وأتم انتخاب باسيليوس .

# أسقف بدون رضاه

بلغنا الآن إلى أغرب ما فى هذه الحياة وإلى أوجع مانزل بغريغوريوس ، فقد صدر فى شتاء سنة ٣٧١ – ٣٧٢ أمر الإمبراطور فالانس بأن تقسم كبدوكية قسمين ، فتشمل كبدوكية الأولى الأجزاء الشمالية والشرقية من الإقليم القديم ، وتكون حاضرتها قيصرية ، وتتألف كبدوكية الثانية من المقاطعات الجنوبية والغربية ، وتكون عاصمتها تيان . فادّعى أنطيم أسقف تيان أنه أصبح رئيس أساقفة كبدوكية الثانية ، ولم يبق لباسيليوس عليه من سلطان . فاشتد الخلاف ما بين قيصرية وتيان حتى اضطر باسيليوس ، إثباتاً لسلطته على كبدوكية الثانية ، أن يمضى فيجبو بنفسه بعض إتاوات كانت تجمع بجانب كنيسة القديس أورست فى سفح جبل طوروس . وقد رافقه غريغوريوس فى رحلته هذه . وفى طريق عودته هاجمت قافلة بغاله جماعة من الرجال أوفدهم أنطيم نفسه فأصابت غريغوريوس بعض ضربات وقت المشاجرة ظل يذكرها ويقول : « تلك جراح مباركة » . واستولى أسقف تيان على البغال .

وعزم باسيليوس أن يدافع عن حقه الدفاع كله ، فأنشأ أسقفيات

جديدة وفكر أن يسقّف غريغوريوس ويقيمه فى بلدة تدعى سزيم. وهى قرية حقيرة ، غير أنها أصبحت مهمة لما كان عليه باسيليوس من المهامّ . . . كانت سزيم على مفرق طرق، تلتقى فيها الطريق الآتية من تيان والذاهبة إلى قيصرية ، والواردة من الجنوب ، وتسير عليها وسائل النقل من مدينة القديس أورست إلى قيصرية . فكان باسيليوس يريد أن يضع فى هذا الموقع الشائك رجلا صديقاً ثقة . . . فوافقه غريغوريوس الشيخ ، أما غريغوريوس النزينزى ، فكبر عليه الأمر وأثاره ، إذ كان قد ارتعد من قبل أمام الكهنوت ، فكيف به الآن أمام الأسقفية . فهو يرى أن عبئها ثقيل عليه، ولا سيما فى هذه الأوقات المضطربة، بما يحوكه الهراطقة من الدسائس ، وبما فى قبول الأسقفية من قضاء على رغبته فى الصمت والهدوء ؛ ثم أى خير يستطيع أن يحققه إذا صار أسقفاً على سزيم ؟ وليس فيها شعب مقيم ، إلا شراذم من المتشردين ، ناهيك بما ينتظره من الاشتراك فى حرب هائلة بين باسيليوس وأنطيم ! هل يجبرونه على القتال فى سبيل أتاوى ، كأنه نضال لخلاص النفوس ؟ فبلغ به حزنه أن ظلم صديقه، وقال عن هذا الصراع بين الأسقفين المتنافسين : إنما سببه الطمع وحب المال . على أن مقاصد باسيليوس كانت أشرف من ذلك . وقد كان يدافع عن حقوق الكنيسة وعن استقلال النظام الكنسى إزاء النظام المدنى .

ولكن غريغوريوس بالرغم من احتجاجاته الشديدة لم يقاوم أباه

وصديقه طويلا ، فصمما على رأيهما فيه ورسماه أسقفاً قبيل عيد الفصح من سنة ٣٧٢ . وتعهد الأسقف الجديد ، جهراً ، بخطاب ألقاه بعد تسقيفه أن يجلس على كرسى سزيم ، غير أن أنطيم سبقه واستولى على نواحيها . ولم يشأ غريغوريوس أن يلجأ إلى القوة للاستيلاء على منصبه ، فهرب وذهب إلى الجبل ليعيش فى الخلوة ، ولم يستطع باسيليوس بتوبيخه أن يرده عن عزمه ، ولكن غريغوريوس الشيخ استطاع أن يقنعه لا بالذهاب إلى سزيم بل بالعودة إلى نزينز لمساعدته .

وفقد غريغوريوس أبويه سنة ٣٧٤ ، فواصل مدةً إدارة كنيسة نزينز ، ثم بيّن لأساقفة الناحية أنه ينبغى تعيين أسقف رسمى لهذا الكرسى ، لأنه لم يحضر إليه إلا ليساعد أباه ، لا ليخلفه . ولم يلبث أن انصرف إلى خلوته .

وعبثاً بسط لهم وجهة نظره ، فلم يكن يخطر ببالهم أن يختاروا لأسقفية نزينز أسقفاً غيره ، وقد شاهدوا حسن إدارته ، وقرروا أن الحل المؤقت يمكن أن يدوم .

أما غريغوريوس ، وقد كان مريضاً ، فاختفى ثانية ومضى إلى سلوقية — إليطورية فى الإقليم الجنوبى الغربى من كبدوكية .

## القسطنطينية

كان غريغوريوس لا يزال معتزلا في سلوقية ، بأوائل سنة ٣٧٩ ، حينما عرف بوفاة باسيليوس ، في أول يناير من السنة نفسها . ولم يكن لمسألة سزيم أن تخمد ما كان بينهما من الصداقة . فالرسالة التي بعث بها إلى غريغوريوس النيصّي شقيق باسيليوس تفيض بالحزن الشديد . وبينما كان باسيليوس يلفظ أنفاسه الأخيرة ، كان غريغوريوس يتهيأ للعودة إلى الحياة العملية . فقد ألح عليه الشعب الكاثوليكي في القسطنطينية أن يتولى شئونه وهو في محنة قاسية . لأن الأريوسيين كانوا أصحاب السيادة في المدينة منذ ٤٠ سنة . فتضاءل عدد الكاثوليك ، ولم تبق لهم فيها كنيسة . وكان لتأييد الإمبراطور فالانس للهراطقة أثر بعيد في تقهقر الكاثوليك . غير أن فالانس كان قد مات ، منذ أشهر في ٩ أغسطس ٣٧٨ ، وخلفه تيودوسيوس ، وكان على الإيمان المستقيم ، فتنفس كاثوليكيو القسطنطينية إلا أنهم كانوا في حاجة إلى رأس . فهرعوا إلى غريغوريوس ، وقد ذاعت شهرته في كل أرض ، وهو حينئذ غير مقيد بكنيسة ، فتردد أولا لأسقامه وعزم أن يعود إلى سلوقية ، وينقطع إلى الحياة النسكية . ولكن ما في

القسطنطينية من مجال للعمل الرسولى أنساه نفسه وأسقامه ، وجاءها فى أوائل سنة ٣٧٩ ، فوجد كنائسها كلها فى أيدى الأريوسيين ، حتى اضطر أن يجمع مؤمنيه فى دار أحد أصدقائه ، ودعا تلك الدار أنسطازيا ، أى كنيسة القيامة ، فكانت قيامة حقيقية ، على أنه لم تنقصه المتاعب ، فقد قاومه الأريوسيون أشد المقاومة ، حتى إنهم أغاروا ، وقت صلاة الليل ، فى عيد الفصح سنة ٣٧٩ على الأنسطازيا معبد القيامة الصغير ، واعتدوا على المصلين ؛ وأصابت بعض الحجارة غريغوريوس نفسه . فأبى أن يشكو أحداً ، بالرغم من إلحاح الكثيرين من خواصّه . فكان أن رفع الأريوسيون أمره إلى المحكمة واتّهموه بالقتل .

فخرج بريئاً مما اتهم به . ثم أرسل إليه الأريوسيون مرة أخرى شاباً ليقتله فى داره . وكان غريغوريوس يعيش عيشة بسيطة ، فاستطاع القاتل أن يدخل الدار ، ويلج غرفة نوم الأسقف ، كمن يريد أن يكلمه . وإنه ليرفع يده ليضربه ، إذ به يتحول عن عزمه ويخرّ على قدميه ، فيسأله غريغوريوس . . . فلم يجب إلا بالبكاء ، فتأثر هو نفسه حتى استعبر . وسمع من كان فى البيت فجروا وعرفوا الحقيقة كلها . وعفا غريغوريوس عن المجرم عفواً ، وصار إذا ذكر هذا الحادث يقول : إنه لم يأتِ فى عفوه أمراً غريباً .

وحلت به هموم أخرى من شخص منافق هو مكسيم الكلبى ، دخل هذا فى جماعة الأنسطازيا ، بصفته فيلسوفاً منضوياً إلى المسيحية. فاستقبله

غريغوريوس استقبالا أبويًّا بين رعيته الصغيرة . وكان الرجل يظهر من جهته تحمساً حارًّا للإيمان الصحيح ، ويدعم تعليم غريغوريوس باستحسانه لكل ما يسمع منه . وتقدم للجماعة كمعترف بالإيمان المسيحى ، حاملا فى جسده ندوب الجراح التى احتملها من أجل المسيح . هى آثار جراح حقيقية ، ولكن لم يظهر إلا بعد حين أنها كانت مما أنزله به الشرطة الإمبراطورية من الضرب لما أتاه من السرقات . ولما أيقن مكسيم أنه قد نال ثقة الجميع ، حصل على الأسقفية خفية ، فى معبد الأنسطازيا على أيدى أساقفة مصريين أرسلهم لهذه الغاية بطريرك الإسكندرية الذى عرف مكسيم أن ينال ثقته . غير أن انتخاب المنافق لكرسى القسطنطينية لم يعترف به أحد ، فذهب يبحث عن مورد للكسب سواه .

أخذ الكاثوليك ، بالرغم من المصاعب ، ينهضون ويتقوّى إيمانهم بما يسمعونه من مواعظ غريغوريوس . وقد ألقى فى هذه الحقبة « عظاته اللاهوتية الخمس » التى تكوّن أكمل وأسمى وأتقن مجموعة من تعليمه عن الله وعن سر الثالوث . وقد لقّب عند الشرقيين عموماً بسبب هذه الخطب الخمس « باللاهوتى »، وبلغ من الشهرة مبلغاً بعيداً، حتى إن القديس إيرونيموس ، وقد كان منقطعاً إلى درس الكتاب المقدس فى أنطاكية ، جاء خاصة إلى القسطنطينية لكى يتكمل بالقرب من غريغوريوس ، وأقام زمناً طويلا فى هذه المدينة ، وكان يسرّه أن يقول : إن غريغوريوس النزينزى كان دليله فى معرفة الكتاب المقدس .

وظهر انتصار الكثلكة القاطع فى القسطنطينية بصفة رسمية ، آخر سنة ٣٨٠، حين عاد الإمبراطور تيودوسيوس إلى العاصمة، بعد انتصاره على القوط ، واحتفل بإجلاس غريغوريوس على كرسيه ، وأعاد للأكليروس الكاثوليكى ما كان الأريوسيون قد استولوا عليه من الكنائس .

وفى سنة ٣٨١ ، افتتح المجمع القسطنطينى المعروف فى الكنيسة كلها بالمجمع المسكونى الثانى ، فيما يتعلق بالقضايا اللاهوتية . وقد ترأس هذا المجمع ميلس Melèce أسقف أنطاكية ، وجدّد على الأريوسيين حكم المجمع النيقاوى ، كما حكم على مكسيم الكلبى ، واعترف بغريغوريوس النزينزى أسقفاً على القسطنطينية .

ومات فى هذه الأثناء ميلس ، فتولّى غريغوريوس رياسة المجمع ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن المنافسة قد قسمت الأساقفة إلى شرقيين وغربيين . فقال البعض : « التقدم للشرق لأن المسيح ولد فى الشرق » .

وقال غريغوريوس : « لا شك ، ولكن الشرق قتله . . . »

ولم يتوقف الشقاق عند هذا الحد من المناقشات اللاذعة ، بل ظهر على أتمّه عندما لزم اختيار خلف لميلس على كرسى أنطاكية .

كان الموقف مرتبكاً ، لأن كنيسة أنطاكية الكاثوليكية كانت منذ نحو عشرين سنة منقسمة، يدير شؤونها أسقفان: ميلس وپولان؛ الأول

يعاونه الشرقيون، والثانى يعاونه الغربيون وبطريرك الإسكندرية . فبذل غريغوريوس ، بعد وفاة ميلس ، كل جهده ، لكى يأتى بحل معقول : وهو أن يعترف الجميع بالأسقف پولان رأساً للكنيسة الأنطاكية ، فرفض الشرقيون حله ، وتهيؤوا لاختيار خلف لميلس ، إبقاء للانقسام .

فأثرت بغريغوريوس هذه الاختلافات الدائمة ، مع ما هوعليه من شدة المرض ، وعزم أن يستقيل . لكن أخّره إلحاح شعبه عليه ، يرجوه ألا يتركهم وقد تشجعوا بوجوده بعد اليأس ، وانفتح أمامهم باب النجاح .

وإنهم لكذلك إذ أقبل إلى المجمع الأساقفة المصريون والمكدونيون ولم يكونوا سلسى الطباع . فبدؤوا ينتقدون زملاءهم بأنهم انتخبوا غريغوريوس أسقفاً على كرسى القسطنطينية، وخالفوا بهذا القرار القانون الذى يحرم نقل أسقف من كرسيه إلى كرسى آخر ؛ فإن غريغوريوس كان أسقفاً على سزيم ونزينز ، ولم يكن ممكناً أن يختاروه للقسطنطينية . وكانت هذه جميعها حججاً باطلة ، لأن ذلك القانون نفسه كان قد بطل ، فضلا عن أنه ، وإن كان باقياً ، لا يتناول شخصاً لم يتسلم أسقفية سزيم ولا كان فى نزينز إلا مساعداً لأبيه ثم مدبراً مؤقتاً .

أما غريغوريوس فلم يرد أن يبرر نفسه ، وآثر أن يقدم استقالته لأعضاء المجمع ، حتى لا يكون علة جديدة للخصام . وحذا حذو يونان وطلب أن يلقى فى اليمّ تهدئة للعاصفة ، وانصرف طالباً من زملائه أن يتفقوا فيما بينهم .

## السنوات الأخيرة

عاد غريغوريوس إلى موطنه فى أواسط سنة ٣٨١ ، ورضى أن يدبّر كنسية نزينز ، وكانت لا تزال بلا راع . إلا أنه لم تسعفه صحته على ذلك طويلا ، بالرغم من استشفائه مدة فى مياه كنكساريس المعدنية .

وفى آخر سنة ٣٨١ انتُخِب ابن عمه ألوليلوس أسقفاً على نزينز ، وانعزل هو فى أرضه بأرينز ، حيث قضى سنواته الأخيرة ، منصرفاً إلى حياة النسك والتأمل ، بدون أن ينزوى عن سائر الناس .

وتظهر لنا رسائله الكثيرة شدة اهتمامه فى مساعدة كل من كانوا يلتمسون مداخلته لدى الحكام . وكانت له علاقات جمة إمّا بمن بلغ من زملائه فى أثينا المراتب العالية ، وإما بمن تعرّف بهم من ذوى المناصب ، مدة إقامته فى القسطنطينية . وحدث يوماً أن تمرّد أهل نزينز وقاموا بمخالفات خطيرة حملت حاكم الإقليم أن يهددهم بهدم مدينتهم ، فكتب غريغوريوس توسلا مؤثراً فى سبيل وطنه فنال العفو .

وكان بعض الأوقات يعنى بأمور غير مهمة ، كعنايته بدروس ابن

أخيه نيكوبيل ، وقد أرسل إليه مجموعة من رسائله الخاصة ، بحسب طلبه .

فلم تكن عزلته برجاً عاجيا ، بل كان يعتقد دائماً أن الإقبال على الاتحاد بالله لا يتعارض وتفتح القلب والروح على كل ما هو حسن فى الأشياء والعواطف الإنسانية .

ولقى ربه ، هادئاً ، فى خلوته ، نهاية سنة ٣٨٩ ، أو فى بداية سنة ٣٩٠ .

## قديس حساس

لعل هذا الموجز قد أظهر أخص ملامح غريغوريوس الأدبية . فقد رغبنا أن نعرضه على بساطته ، وسمو روحه ، وشدة إحساسه .

فليس من المبتذل أن نرى بين آباء الكنيسة شخصاً متناهياً فى شهرته وجلاله ، ومتناهياً فى بساطته . إنه بأجمعه مع الجميع : فمواطنوه يحرجونه ويستغلّون طيبته بكثرة مطالبهم إليه (فرسائل التوصية لا تحصى فى مجموعة مراسلاته) ؛ ومراسلوه يسايرهم ويوائم أمزجتهم ، وسامعوه يراقب أثر كلامه فيهم حتى ليغيّر ويستطرد فى خطابه ، إذا ما رأى فى الاستطراد منفعة لهم . ونحن ، على بعد ما بيننا وبينه ، واختلاف زماننا عن زمانه ، وبالرغم من قدم أساليبه، نحس كأنّه قريب منا ، لسهولة ما يكشف لنا من أسرار نفسه .

لقد حمله شرفه وكرم نفسه إلى طلب الكمال ، باندفاع دائم الفتوة . وهو يتصور ذلك صعوداً لا حدود له نحو الجمال ، والنور ، نحو الله الذى يدعوه « ثالوثى » ، ويلحّ أى إلحاح على اتحاد النفس بالله ، ويرى فى ذلك غاية الحياة : « القداسة هى أن تكون مع الله » .

(من شعره)

« ليتعب ذهنك فى سبيل تثقفك بالأفكار الإلهية وكلام الحياة » .

(من شعره)

انتهى به شرف نفسه هذا إلى سذاجة فى الحياة العملية . ولولا سرعة ثقته بالناس ، وتقديره حسن النية عندهم بلا دليل كافٍ ، لما خدعه مكسيم الكلبي ، ولما وفى ديوناً وهمية عن أخيه سيزير بعد وفاته .

وكان لدقة شعوره ألطف الأصدقاء وأرقّهم . وقد قدر أن يعبّر عن عاطفته بمثل قوله :

« أتنسّمك أكثر من النسيم » .

( رسالة ٦ )

« أنا ، إن صحوت أو غفوت أهتم بكل ما يمسك » .

( رسالة ١٧١ )

« سواى لهم جوانب ضعف ، وجانب ضعفى الصداقة والأصدقاء »

( رسالة ٩٤ )

ولا نزال نذكر ما شمل به والديه من عطفه ، فإنه لم ينصرف إلى العزلة انصرافاً كاملا، وظل بالقرب منهما ، ما داما فى قيد الحياة . وقد ربكه شعوره أحياناً وأيقظ فى ضميره متاعب غير قليلة .

ولم نخفِ ما كان من اختفائه مراراً ، هرباً من الحياة العملية ، وقد طاب لبعض المؤرخين أن يوجهوا إليه لوماً قاسياً ، ويقابلوا تردده بحزم باسيليوس رجل العمل النادر الوجود . ونحن بدون أن نجاريهم فى ذلك ، نعلم أن غريغوريوس كانت له عيوب لم يقوَ دائماً أن يتغلب

عليها . وعرف هو نفسه ذلك ببداهته المألوفة . وقد روى مثلا لذلك فى إحدى قصائده كيف رفض أن يشغل أسقفية سزيم ؛ مخاطباً قارئه : « اطلب منى ، إن شئت ، نوعاً آخر من الشجاعة ، واعرض هذا على من هم أحكم منى ! » .

ونحب أن نؤكد أن هذا الرجل الذى كان قديساً عظيماً قد كان فيه ضعف وخور يقربانه منا . فاضطر أن يحارب ضعفه فحاربه . وإن يهرب أولا بعد سيامته كاهناً فلم يلبث أن عاد أدراجه حينما سكنت نفسه ، وانصرف إلى ما يشقّ عليه من حياة العمل . وإن يختفِ مرة ثانية بعد تسقيفه ، فإنه يلبي دعوة أبيه ، ويعود فيقوم بوظيفته وبما يصحبها من المسئوليات . وإن يتوارَ مرة ثالثة ، بعد موت أبويه ، فإذا هو يغادر خلوته ليمضى إلى القسطنطينية ويحمل فيها عبء منصب خطير لم يكن بالسهل ولا بالخفيف . لقد كان ، ولا شك ، أولى به ، وكان أكثر بطولة لو مضى وشغل كرسى سزيم ، على ما عنده من كراهيته . ولكنه لو أصبح أسقف سزيم ، لما تيسر له أن يذهب إلى القسطنطينية ويقوم بما قام به فيها من العمل العظيم .

وعلى كل فقد حاول أن يعوّض مخلصاً عن انهزاماته . فلم تؤاخذه الكنيسة عليها ، لما قام به من الخدم ، ولاسيما بتعليمه القويم الخالى من كل شبهة ، حتى جعلته أحد معلميها .

ملاحظة :

إن مؤلفات غريغوريوس ، وبالخصوص مواعظه ، تفيض بالآيات الكتابية ، وأخبار الكتب المقدسة . ونحن نذكر ذلك ولا نستطيع أنْ نحقق مواقعها لأن القديس كان يرجع فى استشهاده إلى الترجمة السبعينية من العهد القديم .

## روح غريغوريوس

من أجلك أحيـــا ،
ومن أجلك أتكلم ،
ومن أجلك لا أتحرك،
ومن أجلك أسعى ،
أيهـــا المسيح الملك !

( شعر )

## صلاة الصباح

من مطلع الصبح، أرفع إليك يدىّ ، يا الله . فلا آتينّ ، ولا أقبلنّ إلى أى عمل من أعمال الظلام ، بل لأقفن عليك ، جهد المستطاع ، هذا النهار ثابتاً فى عزمى ، مسلّطاً على أهوائى ! وإن بُليت بأن أكون رديئاً ، فإنى أستحيي من أجل شيبتى ومن أجل المائدة السرية التى أقف بالقرب منها . هذه مشيئتى يا مسيحى فبلّغنى إلى غايتى .

( شعر ٢ ، ١٠ ، ٢٤ )

## صلاة المساء

لقد كذبتك ، يا من أنت الحقيقة ، أيها الكلمة ، حين وقفت عليك نهارى هذا ! وها إنّ الليل يوافينى ، ولم أكن نوراً ساطعاً ! على أنى سألتك ، وكنت معتمداً على سؤالى ؛ ولكن عثرت قدماى ، مراراً ، لأن الظلمات كنفتنى ، إذ هى تغار من خلاصى ! أيها المسيح ، نورى ، أضئنى واظهر لى .

( شعر ٢ ، ١ ، ٢٥ )

## صلاة لليوم السابق

لم يبق يوم أمس لى ، أيها المسيح ، وقد تسرّب الغضب فيه إلىّ وأمسكنى . فهل أجدنّ اليوم يوم نور !

فكّر فى نفسك ، يا غريغوريوس؛ ولا تنسَ أن تحدّق إلى الله ؛ لقد أقسمت على ذلك ؛ تذكّر خلاصك .

( شعر ٢ ، ١ ٢٤ )

## نشيد للمسيح بعد صمت الصيام

انتهى الآن الصيام الذى التزم فيه غريغوريوس الصمت التام . فهو يستهل عوده إلى التكلم بالصلاة الآتية :

أيها المسيح الملك ، أنت أول منطقى ، الآن ، وأنا أسمع صوتى بعد حبسه طويلا ! فلتكن كلمتى هذه صادرة من أعماق نفس طاهرة ، من كاهن مطهّر .

يا بهاء الآب ، يا كلمة العقل السامى ، يا كلمة أرفع من كل كلمة بشرية ، يا نوراً سامياً من النور السامى . يا واحداً مولوداً ، صورة

الآب غير المائت ، يا طابعَ من لا بدء له ، وسنى يلمع مع الروح القدس ، وملكاً يمتد سلطانه إلى كل مكان ، يا نهاية الدهور ، ورب المجد ، وموزّع كل غنى ، يا سيداً جالساً فى الأعالى ، يا كائناً سماويًّا ، وإله كل قدرة ، نسمة العقل ، مدبر العالم ، صانع الحياة ، خالق ما هو كائن وما يكون . بك كل شىء موجود ، أنت حددت بمشيئتك آساس الكون فلا تتزعزع . بك أيها الملك ، تكسف الشمس بدورانها فى الأعالى كافة النجوم ، كما تكسف أنت الأرواح الأخرى . بك يحيا القمر عين الليل ، ويموت دواليك ، لكى يعود أكثر إشراقاً . بك تنظّم بروج الفلك المرتبة تعاقب الفصول . والنجوم الثوابت كالكواكب دليل على حكمتك العجيبة . وجميع الأرواح السماوية ، التى تمجد الثالوث الساكن فى الأعالى ، هى لمعة من نورك . والإنسان نفسه ، أيها السنى ، هو مجدك، وضعته على الأرض ملاكاً لكى يعظّم انتصارك.

أيها الخلود ، وقد صرت من أجلى مائتاً ومولوداً ثانية . أيها الكائن السامى والروحانى ، وقد اتخذت فى الزمن الجسد من أجل خطايا البشر ، إنى من أجلك أحيا . ومن أجلك أتكلم ، ومن أجلك ربطت لسانى ، ومن أجلك أنا ذبيحة حية — هوذا ما بقى لى من الخير: من أجلك ربطت لسانى ، ومن أجلك أحله وأسمع صوتى ، فهبنى ، سألتك ، أن أقدس الأمرين كليهما ! أريد أن أتكلم . ولكن لأقول ما يصلح . أما ما ليس صالحاً ، فلا أريد أن أفكر فيه . أريد أن أقدم للآخرين الحجر الكريم

وأبعد الخبيث ؛ أريد أن أختار لهم الذهب من وسط الرمل والزهرة من وسط الشوك الحاد ، وحبات القمح من السنابل .

هذه أيها المسيح تقدمتى ، هذه أول ما يقوم به لسانى منذ استعاد الكلام . اليوم قام المسيح عظيمنا من بين الأموات الذين اختلط بهم : كسر شوكة الموت ، وحطم أبواب الجحيم المظلمة وحرر النفوس . اليوم وقد وثب خارج القبر ، وظهر للبشر الذين ولد من أجلهم ، ومات وقام من بين الأموات لأجلهم ؛ لكى نستطيع نحن ، وقد تجددنا ونجونا من الموت ، أن ننتقل معك ، أيها المسيح الذى تصعد إلى السماوات . اليوم يحدق بك أجواق الملائكة متهللين ، فرحين ينشدون نشيد النصر . اليوم أسمع صوتى وأفتح شفتى ، بعد أن أقفلهما الصمت ، فتجد بى قيثارة مستعدة لمديحك . قدّمت عقلى ذبيحة للعقل ، وكلمتى للكلمة ؛ وأقدم له منذ الآن وللروح القدس ذبيحة أخرى . إذا شاء .

( شعر ٢ ، ١ ، ٣٨ )

## صلاة للثالوث الأقدس

أيها الآب الملك الدائم ، هبني أن أمدحك ، أن أشيد بحمدك ، يا سيدى وربى ، يا من تتغنّى بك النشائد والمدائح ، وأجواق الملائك ، والدهور الأبدية ، ونور الشمس ، وضوء القمر ، وجمال الكواكب الباهر . بك حظى الإنسان ، هذا المخلوق الجليل ، أن يعرف لاهوتك ، لأنه حيّ مزين بالعقل . قد خلقت كل الأشياء وحددت لكل منها محله ، وأنت تديرها جميعها بعنايتك . قلت كلمة فكانت .

كلمتك هو الإله الابن ، لأنه مشارك لأبيه فى الجوهر ومساوٍ له فى العظمة ، وقد رتب كل الأشياء ليكون ملكاً عليها .

والروح القدس وهو الله يغشّى كل الأشياء ويحفظها بسهره عليها .

أريد أن أعلن أنك ثالوث حى ، واحد ، وملك أوحد ، طبيعة ثابتة لم تكن لها بداية . جوهر لا يوصف ، وعقل لا تدرك حكمته ، وقوة ثابتة فى السماوات لا بداية لها ولا نهاية ، نور لا يستطيع أحد رؤيته ولكنه يرى كل شىء ، ولا يجهل شيئاً مما فى أعماق الأرض وأعماق الجحيم .

رحماك أيها الآب ، أعطنى أن أخدم فى كل شىء جلالك ، ألقِ خطاياى بعيداً ، وطهّر ضميرى من كل فكر ردىء ، حتى أمجّد اللاهوت

وأنا رافع يدين نقيتين ، وأبارك المسيح وأسأله جاثياً أن يقبلني كخادم عند ما يأتي كملك .

عطفك أيها الآب . لعلّي أجد رحمة ونعمة ، لأن لله المجد والحمد إلى الأبد .

( شعر ١ ، ١ ، ٣٠ )

لك الحمد أيها الآب ، ملك العالم ، ومبدع الخلائق كافة ! مجدك ملء السماء ، وحكمتك ملء الأرض جميعاً . الإله الابن ، كلمتك ، قد خلق كل شيء . وروحك القدس يهب الجميع الحياة . أشفق بالعالم ، أيها الثالوث الإلهي ! وأشفق بنا ، أنت يا ابن الله بحسب الروح وابن البشر بحسب الجسد . أنت الذي ارتضيت أن تحتمل الموت على الصليب بصفتك إنساناً ، وجزت أبواب الجحيم في اليوم الثالث بكونك إلهاً ، لأنك كسرت قيود الموت بقيامتك ، ومنحت الجنس البشري طبيعة نستطيع بها أن نمدحك بلا انقطاع أيها الدائم .

( شعر ١ ، ١ ، ٣٣ )

المجد لله الآب ، ولابنه ملك العالم ، المجد لمن هو أهل لكل مديح ، الروح الكلي القداسة ! الثالوث هو إله واحد خلق الكل وعمّر الكل : ملأ السماء خلائق سماوية ، والأرض خلائق أرضية ، وملأ البحار ، والأنهار ، ومجاري المياه ، حشوداً تتكاثر فيها الكائنات ؛ يوليها جميعها الحياة بقوة روحه الخاصة ، لكي يشكر الخلق كله حكمة خالقه ، وحده علة حياته

وبقائه فى الوجود . ليمدحك الإنسان خاصة الخليقة العاقلة ، فى جميع أحواله مديحه الملك الأعظم ، والأب الطيب ! أما أنا فهبنى أن أقدم لك بعقلى ونفسى ، ولسانى ، وفكرى مديحاً طاهراً أيها الآب .

( شعر ١ ، ١ ، ٣١ )

## صلاة قبل السفر

فى القصائد الثلاثة الآتية يلتمس غريغوريوس حماية الله فى سفره إلى القسطنطينية .وقد استدعاه إليها الكاثوليكيون فى أوائل سنة ٣٧٩ وهذه الصلوات تفوح منها تذكارات من العهد القديم .

أنت يا من قدت الشعب المختار بعمود من نار وعمود من غمام ، وسيّرته فى وسط البحر على اليبس ، والماء سور له من اليمين ومن اليسار . (سفر الخروج ١٤ : ٢١) ، أنت يا من أمطر من السماء ، دون أى انتظار خبزاً غير معروف ، ويا من فجّرت من الصخر الأصمّ ينبوعاً ، هلمّ الآن ورافق عبدك الذى يدعوك ، أيها المسيح ، نور العالم ، وسهّل كل أمر أمامى .

( شعر ١ ، ١ ، ٣٨ )

لا أحد من دونك يقدر أن يحرك رجله ( تكوين ٣١ : ٤٤ ) ، أيها المسيح الملك ، أنت الخير الأوحد للبشر خاصتك ، أنت الذى تهديهم سواء السبيل . إني أباشر هذا السفر معتمداً عليك ، وبعونك

أسير بلا مضرة . هبني كل مايتمنى قلبي وأعدني ، أيها الملك ، إلى بيتي الحقير . وأعطني بعد عودتي أن أستطيع ، وأنا حرّ ، أن أرضيك، في الليل والنهار .

( شعر ١ ، ١ ، ٣٧ )

في الشعر الآتي يبدي غريغوريوس حذره مما ينتظره من المصاعب في القسطنطينية ؛ و يذكر عناية الله به في سفره الخطر إلى أثينا للدرس . فقد كاد يغرق في عاصفة .

بك يا كلمة الله أستريح متى كنت في منزلي ، وعليك أقف ما اتسع من وقتي . بك أجلس وبك أنهض وأقف وأسير ؛ وطاعة لك أباشر هذا السفر . أرسل إليّ إذاً أحد ملائكتك يهديني، ويكون لي حارساً أميناً يقودني تحت عمودين من نار ومن غمام ، ويشق البحر بكلمة منه ويوقف الأنهار ، ويغذّيني تغذية وافرة من خبز السماء وخبز الأرض . ولتردع علامة الصليب التي أرسمها بيدي جسارة العدو ! ولا تحرقني في النهار شدة القيظ ، ولا تفزعني أهوال الليل ! سهّل أمام عبدك الطرق الوعرة ، كما فعلت كثيراً إذ كنت تحميني بيدك ، أنقذتني من أخطار البر والبحر ، ومن الأمراض المعضلة والمواقف المزعجة .

أعنّى حتى إذا ما تمّمت مهمتى كلها جيداً كما أرجو ، فزت بعود سعيد يعيدنى إلى أصدقائى وأهلى ، فأفرح بلقائهم عندى وقد تممت أشغالى . إنى أعبدك وأسألك أن يكون سفرى هذا القادم هنيئاً وسهلا :

(شعر ١١ ، ١ ، ٢)

# فى المحنة

## رسالة إلى صديقه فيلاغريوس

يذكر فيها زيارته لهذا الصديق وتأملهما فى المزمور ٧٢ ، وما أفادا من تفهم معنى الألم .

ما أنس لا أنس الحديث الذى دار بيننا عند التقائنا الأخير فى ما زاتا ؛ ولا ما أظهرته من الحكمة مما لا أزال شاعراً به كل الشعور . فقد كنت أفسر لك المزمور٧٢ الذى يدهش فيه داود ويحزن مما يراه من سعادة الأشرار : حتى إذا ما فكّر فى أحكام الحياة وفيما ينتظرنا من الجزاء كفّ عن الدهش وزال حزنه . لقد كنت إذ ذاك أبذل جهدى حتى أوجّه شرحى إلى ما كنت فيه من الاعتلال ، وأبرهن لك ، وأنت على تلك الحال بكلام الكتاب المقدس وبأقوال الكتّاب من البشر ، لأنى كنت أحدث شخصاً مثقفاً مثلك . وإنى لكذلك إذا بك تنهض نهوض من يعدو إلى مجال السباق فترفع يديك نحو السماء وتلتفت إلى الشرق وتقول : « من ذا أيها الآب الذى خلق البشر ، ومن ذا الذى يؤدّبهم . . . شكراً لك، لأنك تحسن إليهم حتى بالرغم منهم . شكراً لك لتطهيرك باطن الإنسان بواسطة الخارج ، وشكراً لك لقيادتنا إلى النهاية السعيدة بطريق المحن ، لأسباب لا يعرفها أحد غيرك » .

ولا حاجة بى إلى إعادة كل ما أوردته حينئذ من الآراء معى بل

أحسن منى ، فقد كنت ـ لو أمكن القول ـ سعيداً بمرضك ، فجعلتنى وأنا أستاذك ، تلميذاً لك . ولكنى أتساءل لماذا أجدد هذه الذكرى ؟ لأنى أريد أن أنادى وأخبر الناس جميعاً ، بسبب مثلك ، أنه يلزمنا أن نأسف لحال الأشرار مما يعذبهم من مرض نفوسهم أكثر مما يجب عليهم أن يأسفوا لحالنا مما نقاسى من أمراضنا الجسدية ، متى كنا فى مثل هذا الاستعداد ، فخير لنا أن نكون مرضى صابرين من أن نكون أغنياء جامحين .

( رسالة ٣٤ )

مرض غريغوريوس ومارس ماورد فى رسالته السابقة
من النصائح الحكيمة فكتب إلى الصديق نفسه :

كتبت إليك سابقاً لأواسيك فى مرضك وقد أصبت قبلى . فأرى اليوم أن عليك أنت أن تواسينى ؛ فأنا فى حال من المرض نظيرك . وقد شاءت الصداقة بيننا ألا نفترق حتى فى هذه الحال . إلا أنه أحرى بى أن أقول إنك لقد آسيتنى ؛ فإن شجاعتك تحثّنى على الشجاعة .

( رسالة ٣٦ )

إنى أتألم من المرض وأنا سعيد ، لا للألم ، بل لأكون قدوة لغيرى فى الاحتمال . وبما أنى لا أستطيع تجنب الألم فأكسب على الأقل التسليم والشكر فى المحنة وفى النعمة ، لأنى مقتنع ، رغم الظواهر ، أن لا شىء ينزل بنا بدون غاية فى نظر الله .

( رسالة ٣٦ )

# شعر فى مغادرة القسطنطينية

روينا الأسباب التى حدت بغريغوريوس أن يستقيل من أسقفية القسطنطينية. فقد كانت فترة مزعجة فى حياته ، اجتمع عليه فيها الحزن من ترك شعبه ، والغم مما رأى من انقسامه فى المجمع بسبب ما أبداه له بعض الأساقفة من العداء. ويضاف إلى هذه الأكدار هم باطن من أنه لم يبلغ من الكمال ما كان يريده ، فكل هذه العواطف تلقى على القصيدة كلها لوناً قاتماً من الكآبة.

آه ! لقد خارت قواى ، استمع لى ، يا مسيحى ، أنت الذى بك يحيا البشر. آه ! أى حرب وأية عاصفة تعصف من جانب هذا الجسد ! آه ! ما أطول هذه الحياة ومدة مقامى على الأرض ! كم من معارك ، من الداخل ومن الخارج ، تشوه فىّ جمال صورتك الإلهية ! أى سنديانة تثبت أمام مثل هذه الزوابع ؟ أم أى سفينة تقاوم مثل هذه الأمواج؟ أبلانى العمل وتقلّب الأحوال ، تسلّمت على الرغم منى العناية ببيت الآب ؛ ومنذ باشرت العمل فيه وجدته مبدداً ... استقبلونى بالرجم استقبال غيرى بالزهر ، ففصلت عن الشعب الذى أقامنى الروح القدس رئيساً عليه. يالى أباً شقيًّا ! إن زملائى فى إقامة الأسرار هم أشدّ عداوة لى من أعدائى ؛ لا احترام عندهم لمائدة الأسرار ولا لما قمت به حتى الآن من الأعمال. (وهذا مما يحترمه الأشرار أنفسهم عادة)، ولا يتداركون وقاحتهم بأقل دلالة على الشرف، ولا يتمنون إلا أمراً واحداً: أن يمزّقوا صيتى.

(شعر ١١ ، ١ ، ٢٣)

القطعة التالية كتبها غريغوريوس بعد السابقة بقليل ، وهي تشير إلى الحوادث نفسها : يذكر فيها هازئاً القرار المجمعي الذى أنكر عليه صحة انتخابه ، وهو قرار ساقط الإلزام لاينطبق على حالته .

ما من ذنب انتزعني من أبنائى ومن أعمالى ، ولا من شريعة أبعدتنى ؛ يعلم الثالوث الذى خطبت باسمه فى المدينة وأنعشت شرارة الإيمان الحقيق بعد ما كانت خامدة قبل قدومى . هو الحسد و « الحكماء » قد ربطوا لسانى . فكيف إذاً ، يا أحمق أحدثت مثل تلك الشهرة وأنت مغلوب على أمرك ومصاب بمرض ثقيل ؟ أما تدرى اليوم ما هى قوة الجهال ، ذوى الجسارة وحب الإيذاء ؟ — ارقصوا ، واربحوا جائزة السباق ، أيها الأشرار ، ارجموا وارشقوا سهامكم على العزّل ! الصمت حولى عميق ، وغريغوريوس بعيد جدًّا .

(شعر ١١ ، ١ ، ٣٦)

الآن ، لى الله ولى أصدقاء كاملون عوض عرش أسقفى وعوض ضجة جوفاء . فامضوا فى غطرستكم ، وانتصروا ، واطفروا أنتم « الحكماء » وتغنوا بفشلى فى محافلكم وفى ولائمكم ومعابدكم !

صيحوا فالنصر لكم . أمّا أنا وقد هربت من هذا كله فما عسى أن أفعل ؟ سأقيم مع الملائكة ، ولن يكون لى فى حياتى العتيدة من يؤذينى ، ولا من يؤدى لى خدمة ؛ سأخلو بنفسى مع الله . فلتُرجف الألسنة ، وليذهب هرجها فى الهواء ؛ لقد شبعت من ذلك ، وقد طالما كنت عرضة

للنقد كما كنت عرضة لمفرط المديح . أنشد الخلوة لأسكن بعيداً عن الأشرار ، هناك أطلب الله ، منفرداً بعقلى ؛ وهناك يعزى شيخوختى رجاء الأمور السماوية . أمّا الكنائس فماذا أقدّم لها ؟ دموعى. إلى هذا الحد ساقنى الله ، بعد أن أجازنى فى كثير من المكاره . فأين تنتهى حياتى ؟ قل لى يا كلمة الله ، أسألك أن تبلغ بها إلى المقرّ الثابت حيث ثالوثى ، حيث هذا البهاء الواحد الذى ترفعنا إليه الظلال الضعيفة التى نلمحها منه .

( شعر ١١ ، ١ ، ١١ )

## كَرْب بشرى ورجاء مسيحى

ماذا كنتُ ؟ وما أنا ؟
وماذا أصير ؟ لا أدرى

(شعر ١ ، ٢ ، ١٤)

الرياح المتقلّبة ،
وأثر السفينة التى تشق العباب ،
وأحلام الليل الكاذبة التى تخلبنا لحظة ،
وما يخطه الأطفال فى ألعابهم على الرمال ،
أحق بالثقة من السعادة البشرية .

(خطاب ١٤ ، ١٠٩)

إنك تدعونى ، إنك تدعونى ،
وأنا أجرى نحوك . . . فاقبلنى
يا ربى : لكن تطهيرى ناقص جدًّا

(شعر ١١ ، ١ ، ٨٩)

شعر غريغوريوس بما يشعر به كل إنسان من الانجذاب نحو اللامتناهى ، كما أحس بثقل الجسد ؛ فتألم من هذا التناقض بين نزوعنا إلى السعادة الدائمة و بين توقفنا فيما حولنا ، وكثيراً ما عبر بشعره وخطبه عن كربه من أن يكون تارة سماويا وتارة أرضياً — فيقف مرة شاكياً ومرة متسائلا ؛ ويختم مرة تأمله وملء نفسه الرجاء بالله . وهو فى النص الآتى يفسر أحسن تفسير كلمة القديس بولس الشهيرة : « ويلى أنا الإنسان البائس ، من ينقذنى من جسد الموت هذا ؟ »

هذا الجسد ، كيف اتحدت به ، لا أدرى ؛ كيف أكون صورة الله وأكون فى الوقت نفسه مخلوطاً بهذا الطين الذى جاء منه الجسد ، لا أدرى . هذا الجسد ، متى كان سليماً حاربنى ومتى حاربته أحزننى ، أحبه حبي لرفيق فى الأسر وأحذر منه حذرى من عدو ، أهرب منه كمن يريد منى أن أشاطره ذله ، وأجلّه كمن له معى حق فى الميراث السماوى ؛ أجدّ فى إنهاكه ؛ فلا يبقى لى معين يعيننى على إدراك أجمل ما يكون ، لأنى أعلم أحسن العلم لماذا خلقت ، وأعلم أنه يلزمنى أن أرتفع نحو الله بواسطة أعمالى ؛ فأراعيه مراعاة مساعد ، ولكنى لا أدرى حينئذ كيف أجتنب هجومه ، وكيف أبقى قريباً من الله ولا أسقط متراخياً بما يجذبنى به نحو الأرض أو يربطنى به من عراقيله . إنه عدوّ لطيف وصديق خائن . آه ! أى تآلف وأى تخالف ! إن ما أخافه أطلبه ، وما أحبه أرهبه ! أتلك هى الحرب ؟ وقبل أن تنشب فقد هادنت . أم هو السلم ؟ وقبل أن يعقد فإذا الصراع . ما الحكمة فى معاملتى هذه المعاملة ؟

وما هذا السر الخفى ؟ أبما أننا جزء من الله وقد أتينا من فوق ، يتحاشى الله أن ترفعنا هذه العظمة فتحملنا على الاستخفاف بالخالق ، ويريد أن نلتفت نحوه فى هذا الصراع وفى هذه المعركة ضد الجسد ، وأن يكون هذا الضعف الملازم لنا هو الملطف لعظمتنا ؟ ونعلم كذلك أننا عظماء جداً وأذلاء جداً ، أرضيون وسماويون ، زائلون وخالدون ، وارثون للنور والنار ، أو للظلام ، بحسب ما نميل إلى هذا أو إلى ذاك الجانب .

( خطاب ١٤ ، ٦ – ٧ )

لا شىء فى أمور البشر ثابت بطبعه ، لا شىء ناجٍ من صدمة يصطدمها ، لا شىء مكتف بذاته ، ولا شىء باقٍ على حاله ، أمورنا البشرية دولاب يدور ويتغير دورانه مرة بعد مرة فى النهار وأحياناً فى ساعة واحدة .

فالزوابع المتقلبة ، وأثر السفينة فى البحرِ ، وأحلام الليل الكاذبة التى تخلبنا لحظة ، وما يخطه الأطفال فى ألعابهم على الرمال ، أحق بالثقة من السعادة البشرية . . . لأن كل ما على الأرض فان وعابر . . . أشبه بحجارة اللعب تدور من جهة إلى أخرى ، وتنتقل من يد رجل إلى يد آخر بخلاف ما وراء هذه الحياة من الأشياء ، فإنها ثابتة دائمة لا تبتعد أبداً ولا تتغير ، ولا تخيب آمال من جعلوا رجاءهم فيها . فإذا كانت جميع الأشياء الأرضية زائلة ، وإذا كان الكلمة ، الفنان الإلهى ، والحكمة

التي تفوق كل عقل، قد حكم فيما حكم بأنا نسيء استعمالها، فصار علينا أن نزهد فيما يزول ونندفع نحو الحياة الباقية؛ فما كنا نصنع لو كان النعيم مضموناً لنا فى هذه الحياة، فنحن مع ما نرى من سرعة زواله لا نبرح متعلقين به، ومستعبدين لما يقدمه لنا من اللذة الخادعة؟ لذلك لا نستطيع أن نتصور شيئاً أفضل وأرفع من الأمور الحاضرة، على حين أننا نعلم علماً أكيداً أننا خلقنا على صورة الله وهى تجذبنا إلى فوق.

(خطاب ١٤، ١٩، ٢٠٠)

النص الآتى من خطبه ألقاها غريغوريوس على مسيحيى القسطنطينية فى معبد الأنسطازيا بعد خيبة مكسيم الكلبى، وكان غريغوريوس قد اتخذ بعض الراحة خارج المدينة.

كنت أسير وحدى، عند ميلان النهار، أتنزه على شاطئ البحر، كعادتى متى أخذت بعض الراحة بعد العمل، فالحبل لا يحتمل التوتر الدائم، والقوس إن لم يرخَ بين طرفيها لا تنزع عن السهام. فقد كنت أمشى حينئذ، وأنا أحدّق فى الأمواج. فلم يكن فى مرآها من الفتنة ما يكون فى أوقات الصفو، حين يمتد البحر على الشاطئ هادئاً، ناعماً... ما باله إذاً؟ إنى أقول فيه ما جاء فى الكتاب: «عند عصف ريح شديدة كان البحر هائجاً مضطرباً»، فالأمواج، كما يحدث، كانت هائجة تتعالى من بعيد، ثم تنخفض، فتكتسح الرمال، أو

تصطدم بالصخور القريبة فتتكسر وتتطاير زَبَدَاً وحَبَبَا ، وكانت المياه تجرف معها حصى صغيرة وأشنة وصدفاً ، فتطرحها على الشاطئ ؛ ثم يتراجع بعضها مع الموج ؛ أما الصخور فكانت تثبت جامدة وراسخة ، كأن كل شيء كان حولها هادئاً ، مع أن الأمواج كانت تلطمها .

فكان لى من ذلك ، وحقكم، موضوع تأمل مفيد ، فقد خلقت ، هكذا ، أطبِّق على نفسى كل ما أرى ، ولا سيما إذا كنت متأثراً من أمر أقلقنى كما حدث أخيراً . فحاولت ألاّ أهمل شيئاً مما كنت أراه ، وأفدت من ذلك المشهد درساً .

كنت أقول أليس هذا البحر أشبه بحياتنا وبحال البشر ؟ فهناك أيضاً كثير من المرارة وعدم القرار ، أوَليست الرياح هى التجارب التى تعصف بنا وضربات القدر التى تفجعنا ؟ هذا ، فى اعتقادى ، ما كان داود يتأمل فيه حينما كان يصرخ : « خلصنى يا رب ، فإن المياه دخلت إلى نفسى » ، أو « أنقذنى من قعر المياه » ، أو « ذهبت إلى أعالى البحر فغمرتنى العاصفة » .

ويظهر لى أن المجرَّبين بعضهم كالعصف يحمله التيار فلا يرى منه أية مقاومة . وغيرهم كالصخور هم جديرون بهذا الصخر الذى بنينا عليه والذى نعبده ؛ هم أولئك الذين نشؤوا على مبادئ الحكمة الحقيقية ، فإنهم يرتفعون فوق الضعف العادى ، ويحتملون كل شيء ، ثابتين

ثباتاً لا يتزعزع ، هازئين من اضطرابات الآخرين ـ أو بالأحرى يشفقون عليهم ، لأنه إذا كانت الفلسفة تهزأ ، فإن المحبة تشفق .

( خطاب ٢٦ ، ٨ ، ٩ )

ظل غريغوريوس حتى آخر حياته يحس بكرب شديد وآلام نفسية : من دنو أجله ، ومن التجارب : ومن هجمات الشرير ، والخوف من ظهوره أمام الله غير مطهر كما يجب ، فهذه العواطف جميعها صبغت شعر شيخوخته بلون من الأسى . فقال :

دنت ساعة النزع . وقد قطعت سفرة سيئة . إنى لأرى جزاء رداءتى : الظلمة البرانية ، لهب النار ، الفضيحة من الأمور الخفية حتى الآن . رحماك يا رب ! هبنى ، بجودتك حسن الختام ! لقد قاسيت كثيراً من المحن وأنا خائف من ثقل عدلك الرهيب ، أيها الملك ، لا تبدأ بمحا كمتى ! أريد أن أقبل الموت ، وأخرج من هذا العالم ، راضخاً لما يعنّينى من الآلام . ولكم أقول ، أنتم يا من تأتون بعدى : « لا خير فى هذه الحياة ، لأنها تحمل خرابها فى ذاتها » .

( شعر ١١ ، ١ ، ٧٧ )

ابتعد ابتعد أيها العدوّ ! ابتعد أيها العين الشريرة ، يا وباء معدياً ! ابتعد ، إن المسيح فىّ . قد قدّمت له نفسى وسلّمته روحى . اهرب ، تقهقر سريعاً ! يا ملائكتى الحراس . الغوث الغوث ! الظالم ، اللص يقترب ، نجّونى منه ، يا أحبائى أرجوكم .

( شعر ٢ ، ١١ ، ٥٩ )

مضى فصل الأزهار ، ودنا وقت الحصاد ؛ ابيض شعرى ؛ البيادر تطلب السنابل ؛ حلا العنب ، قربت أيام القطاف ، صار ما جنيت من الذنوب فى المعصرة ليداس ؛ يوم نحس ، وأسفاه ! كيف أجتنبك؟ ما يكون مصيرى ؟ ما أشد خوفى من ذنوبى . أرتعد أن أظهر حاملا أشواك عمورة وعنبها ، عند ما يديننا المسيح الإله نحن الذين جعلنا آلهة . سيضع كل واحد فى المكان الذى استحقه . . . لم يبق لى إلا أمل ، وهو أن أصلح سلوكى فيما بقى لى من العمر القصير ، وأن أتبعك خطوة خطوة ، أيها الإله السعيد .

( شعر ٢ ، ١ ، ٧٢ )

أتألم ، أتألم ، وجسدى فى محنة شديدة ، قد يهزأ البعض من أوجاعى وينتظرون فرحين وفاتى ، وهنت ساقاى ؛ أذلك من إماتاتى ، أم من خطاياى ؟ أتلك محن ؟ لا أدرى ، ولكنى أشكر من يقودنى . لعل ذلك هو الأفضل . ومع هذا فإنى أسألك ، أيها المسيح ، أوقف هذا المرض ، أوقفه بكلمة منك ، فأخلص ! وإلا فأعطنى على الأقل القوة لأصبر على كل شىء ! للدود ما للدود ! ولكن احفظ صورتك فىّ فيكون عبدك كله فى السماء .

( شعر ١١ ، ١ ، ٧١ )

يبحث غريغوريوس فى القصيدة الآتية مسألة طالما شغلت عقول الفلاسفة اليونانيين : مسألة الشقاء البشرى وتقلب كل شيء ولغز مصير الإنسان ، فالقديس لم يأت بجديد إلا بذكره جواب المسيحية عن تلك المسائل .

فصوفكل لم يخش أن يثبت أن خير الإنسان الأعظم ألا يولد وأوريبيد يخالف الأفكار السائرة فيقول : ربما كانت الحياة موتاً والموت حياة. وأفلاطون يؤكد أن حياة غير الفلاسفة هى موت ؛ والفلاسفة وحدهم يجدون الحياة الحقيقية لأنهم يتعلمون كيف يموتون . أما غريغوريوس فأمام هذا الاضطراب يفسر لغز المصير بحسب تعليم «كلمة» الله. والوحى يأتى بالجواب رأساً من الإنجيل ومن القديس بولس : «أنا القيامة والحياة» ، «يجب أن يلبس هذا الفاسد عدم الفساد وهذا المائت عدم الموت» .

كنت أمس محطَّماً بهمومى، وكنت وحدى جالساً فى غيضة ظليلة ، أناجى فؤادى ؛ وأنا أحب هذا العلاج فى عذابى ؛ أن أحدّث قلبى بلا ضجة . وكان همس النسيم يشارك الطيور فى تغريدها ، فيحدث فتوراً لذيذاً — حتى على القلب الكئيب . وكانت الزيزان عشاق الشمس ، وهى تهزّ صدورها ، تثرثر على الشجر ، فتملأ الغيضة رنيناً . وكان على قرب منى جدول ماء بارد يحمّم قدمىّ . أما أنا فكنت غارقاً فى وجعى ؛ لا شيء يسلّينى : متى كان القلب موجعاً يأبى قبول ما يلذ ، فكنت فى هذه الزوابع من اضطراب القلب ومن تعارض مقاصدى فى صراع : ماذا كنت ؟ ما أنا؟ ما أصير ؟ لا أدرى! حتى من كان أغنى علماً منّى لا يدرى أكثر منى ! كأنى على غمامة تسير بى مع الريح على غير هدى ، فلا أعرف حتى فى الحلم شيئاً مما أريد ؛ إننا جميعاً أرضيون متشردون ، تُطبق علينا غلاظة الجسد كغيمة قاتمة . نعم هو أحكم منى ذاك الذى

خدع قلبه قبل أن يخدعه . أنا موجود . فقل لى ما الوجود ! قد ذهب جزء منى ؛ فصرت الآن آخر ، وسأصير آخر إذا بقيت . لا شيء دائم ؛ « أنا » مجرى نهر عكر ، متحرك ، ليس له ثبات . ما أنا من جميع هذا ؟ ما فىّ بزعمك خير من البقية ! أنا هنا الآن ؛ فحاذر ألاّ أفلت منك ! النهر الذى قطعته ، لن تقطعه مرة ثانية دون أن يتغير . كنت قبلا فى لحم أبى ، فقبلتنى أمى ، فأنا مدين للاثنين بالحياة ؛ كنت أولا كتلة لحم سمجة ، لا مظهر بشرلها ، وقباحة لاشكل لها ، ولا فهم ، ولا عقل ، كانت أمى قبرى ، فنحن ندفن مرتين ، ومصير حياتنا البلى والفساد ... هذه الحياة أراها تتبدّد سنين ، ثم تنزل بى الشيخوخة الكريهة . ولكن إذا كنت أجد هناك حياة لا نهاية لها ، حسب « الكلمة » ... فهلا ، ألا تكون الحياة موتاً ، وهذا الموت ألا يغدو لك حياة ، بخلاف ما تظنّ ؟

## غريغوريوس فى الحياة العملية

جميل هو التأمل ،
وجميل هو العمل :
أحدهما يرفعنا عن هذه الأرض ،
ويبلغ بنا إلى قدس الأقداس ،
فيعيد روحنا إلى ما خلقت له ،
والآخر يستقبل المسيح ويخدمه،
ويبرهن له عن حبه بالأعمال .

( خطاب ١٤ ، ٤ )

# خطاب غريغوريوس الأول

رأينا كيف سيم غريغوريوس كاهناً على رغمه فى يوم عيد، آخر سنة ٣٦١ أو بداية سنة ٣٦٢ ، وكيف هرب سريعاً إلى دير صديقه باسيليوس ، وعاد فى عيد الفصح سنة ٣٦٢ فوجه الخطاب الآتى إلى مسيحيي نزينز ، وكان هؤلاء المسيحيون قد حبذوا عمل أسقفهم ، وساءهم اختفاء الكاهن الجديد ، غداة سيامته . فهو فى خطابه هذا يذكر لهم سبب سفره العاجل ، وهو ما كان يشعر به من سمو فكرة الكهنوت ، وخوفه من أنه لم يكن مستعداً له الاستعداد الكافى ؛ ثم يحض المؤمنين على أن يصغوا إلى تعاليم راعيهم .

لاريب أن غريغوريوس قد ألقى هذا الخطاب بحضرة أبيه أسقف نزينز الشيخ ؛ فيشبهه بإبراهيم لكبر سنه . ولعطيته ابنه للآب . ويحسن أن نعرف لكى نفهم ما ورد فى الخطاب من تلميحات ، أن غريغوريوس الشيخ كان قد بنى كنيسة نزينز من ماله .

اليوم يوم القيامة ، ويوم بداية سعيدة . فلنظهر فى هذا الاجتماع باحتفال ، ونتبادل قبلة السلام . ولندعُ من يبغضوننا « إخوة » ، لا من تحملوا بعض العناء من أجلنا فقط . فلنصفحْ تماماً من أجل القيامة . وليغفر بعضنا لبعض . فأنا أغفر لكم هذا الظلم الجميل . . . وأنتم الذين جرتم علىّ هذا الجور الجميل ، فاغفروا لى ما تلومونى عليه من هذا التأخر فى خدمتكم ، ولعله أثمن عند الله من تسرّع الآخرين . إذ يحسن الانعزال حيناً عند دعوة الله ، كما فعل من قبل موسى الكليم ، ومن بعده إرميا ، ويحسن الإسراع تلبية لقبول هذه الدعوة ، كما فعل هارون وأشعيا ، بشرط

أن يكون الأمران بإيحاء من التقوى : الانعزال بعاطفة من يعرف ضعفه الذاتى ، والإسراع تلبية لقوة الداعى .

هو يوم سرّىّ قد كرّسنى : ويوم سرّى مثله قد حجبنى ، حتى اختبرت نفسى ، ثم عدت بهذا اليوم الجميل ، مسعفاً لترددى وضعفى ، حتى يشاء من قام اليوم من بين الأموات أن يجدّدنى روحيًّا ، ويلبسنى الإنسان الجديد ، فأكون العامل الصالح والمعلم الطيب ، مستعدًّا أن أموت مع المسيح وأن أحيا معه .

أمس كانوا يذبحون الحمل ويخضبون بدمه قوائم الأبواب ، فكان الملاك المدمّر يتجاوز دورنا ؛ وكان ذلك الدم الثمين حصناً لنا . واليوم فنحن أطهار ؛ قد هربنا من فرعون ونجونا من جَبْل الطين وصنع اللبن . فلا أحد يمنعنا من الاحتفال بتمجيد الرب إلهنا ، والاحتفاء بعيد الخروج ، لا بخمير الغش والشر القديم ، بل بفطير الصدق والحق .

أمس كنت مصلوباً مع المسيح ؛ واليوم أنا ممجد معه . أمس كنت أموت معه ؛ واليوم أحيا معه . أمس كنت مدفوناً معه واليوم أقوم معه . فلنقدّم لمن تألم من أجلنا وقام من أجلنا — لعلكم تظنون أنى أطلب ذهباً ، أو فضة ، أو نسائج ، وحجارة شفافة ثمينة ، مما تخرجه الأرض ، ويملك أكثره الأشرار وعبيد الخيرات الزائلة — كلا ، فلنقدم له ذواتنا ، هذه أثمن ما نقدم لله ، وأخص تقدمة به ، ولنردّ لمن هو صورة الله ما هو

على هذه الصورة ؛ لنعرف عظمتنا ، ولنكرم مثالنا ، ولنفهم ما هى قوة هذا السر ولماذا تحمّل المسيح الموت .

لنصرْ مثل المسيح ،لأن المسيح صار مثلنا ، لنصرْ به آلهة ، لأنه صار بسببنا إنساناً ، أخذ ما هو أقل جودة ، ليعطينا ما هو أجود ، صار فقيراً ليغنينا بفقره ، واتخذ صورة العبد ، لكى يمنحنا الحرية ، تجرَّب حتى نغلب ، احتقر حتى نتمجّد . ومات لكى يخلصنا . وصعد إلى السماء حتى يجذبنا إليه ، نحن الباقين على الأرض لثقل خطايانا . ليعطِ كلٌ منكم الكل ، ليقدّم الكل لمن قدم ذاته فداء عنا وبدلا منا . ومن فهم هذا السرّ فلن يعطى شيئاً مثل ذاته ، فيصير من أجل المسيح كل ما صار المسيح من أجلنا .

اليوم يعطيكم المسيح راعياً ، وأنتم ترونه ، فهذا ما يرجو ، وهذا ما يتمنى ، وهذا ما يطلب منكم هذا الراعى الصالح الذى له سلطة عليكم . إنه يبذل حياته من أجل خرافه ؛ وليس يبذلها مرة واحدة بل مرتين : لقد جعل عكاز شيخوخته آلة فى يد الروح القدس ، فأضاف إلى الهيكل الجامد الذى نحن فيه هيكلا آخر حيًّا ، أضاف إلى هذا الهيكل البديع اللائق بالله هيكلا يساوى ما يساوى ، ولكنه عزيز لديه . ولم يوفّر من أجله لا تعباً ، ولا عذاباً ، هل يمكن القول إنه أهل لهذه العناية ! هذا الراعى الصالح يعطيكم كل شىء . ما أكبر نفسه ! بل ما أشد حبه لأبنائه ! يعطيكم الشيخوخة والشباب ، الهيكل والحبر ، الوصىّ والوارث ،

وهذه الكلمة التى تحبونها — كلمة لا تذهب سدى ، ولا تطير فى الهواء ولا تتوقف فى الأذن ، بل يكتبها الروح القدس ، لا فى صحيفة من حجر بل فى القلب ، لا بحروف تمحى بل بنقش عميق ، لا بمداد بل بالنعمة .

هذا ما يعطيكم هذا الإبرهيم الجليل ، هذا البطريرك ، هذا الشيخ البار المحترم ، الحاوى لجميع العواطف الشريفة ، مثال الفضيلة وكمال الكهنوت ، الذى يقدم اليوم للرب ذبيحة اختيارية ابنه الواحد ، ابن الموعد.

أمّا أنتم فقدّموا لله ولنا طاعتكم ، وأقيموا فى المرعى الأمين ، واقبلوا التأديب بجانب الماء المحيي . اعرفوا راعيكم خير معرفة ودعوه يعرفكم ؛ اتبعوه مخلصين حين يدعوكم من الباب ، كراعٍ حقيقى ، ولا تتبعوا من يتسوّر الجدار كاللص ، ولا تصغوا إلى صوت الغادر الذى يبعد عن الحقيقة ويضلل فى الجبال ، والقفار ، والوهاد ، والمواضع التى لا يحل فيها الرب . احذروا صوت الغادر الذى يبعد عن الإيمان الحقيقى بالآب والابن والروح القدس ، لاهوت واحد وقوة واحدة . هذا ما سمعته خرافى دائماً وما تستطيع أن تسمعه كل حين ، بدلا من الصوت الخادع الذى يحوّل النفوس بالأقوال الكاذبة المفسدة عمّن هو الراعى الحقيقى الأول — عسانا جميعاً ، رعاة وقطيعاً ، نظل بعيدين عن هذه الأضاليل بعدنا عن مراعٍ لا نجد فيها غير الوباء والموت ، أنتم باتباعكم لنا ، ونحن بإرشادنا لكم . وعسانا نبقى كلنا واحداً من الآن إلى راحة الأبد ، بالمسيح يسوع الذى له المجد والقوة إلى أبد الآبدين .

## غريغوريوس أمام الكهنوت

لم يذكر غريغوريوس فى خطابه الأول ،الذى وجهه إلى مؤمنى نزينز فى مفتتح خدمته الكهنوتية ، إلا شيئاً يسيراً عن هربه غداة سيامته ، لقضاء مدة فى دير صديقه باسيليوس . وكان ذلك الهرب المفاجىء قد أحدث بين مواطنيه دهشة لم يذهب أثرها . فوضع بعيد عودته دفاعاً فصّل فيه ما كان قد اعترى نفسه ، وجعله بصورة خطاب خيالى أعده للقراءة .

لم يرد غريغوريوس فى هذا الدفاع أن يبرر نفسه فقط ، بل أراد بنوع عام أن يظهر عظمة الكهنوت . ويمكننا أن نجعل عنوان هذا الخطاب ما ورد فى شعره :

« الكهنوت هو تقديس النفوس ؛ يصل الإنسان بالله
والله بالإنسان . هو سر نكرمه ولا نقدر أن نفسره » .

تلك مرتبة ، هى من السمو بحيث لا يمكن القيام بها بدون استعداد متين . ويغتنم غريغوريوس الفرصة ليُنحى باللوم على ترقية الكهنة حتى الأساقفة إلى الدرجات المقدسة بدون كل ما يلزم من الاستعداد .

ويقدّم غريغوريوس فى دفاعه سبباً آخر لهربه وهو خوفه من قلة

استعداده ، وكان عازماً كل العزم ألا يكون من أولئك الذين يقبلون الكهنوت لمآرب بشرية . ويأتى بسبب آخر وهو حبه للحياة التأملية ، وقد شعر فجأة أنه حرم منها منذ ارتقائه إلى درجة الكهنوت . ولكنه يفارق خلوته ويعود إلى رعيته لئلا يعصى الله الذى يكل إليه النفوس .

ليس ما جرى لى ، يا أحبائى ، ناتجاً عن الجهل أو عن عدم الفهم . ولا عن احتقار أوامر الله وأحكامه . وكما أن فى الجسد جزءاً يتحكم ويترأس وجزءاً ينقاد ويأتمر ، فكذلك رتب الله فى الكنيسة أن يكون البعض منقادين يوجههم الكلام والعمل نحو الواجب ، وأن يكون الآخرون رعاة ومعلمين لكمال الكنيسة . وعلى هؤلاء أن يكونوا فوق العامة بفضيلتهم وأنسهم بالله . يقومون بدور الروح فى شئون الجسد ، أو بدور الذهن فى شأن النفس . بحيث إن هذين العنصرين ، وهما متحدان ومرتبطان بانسجام الروح القدس، يكوّنان جسماً واحداً كاملا ولائقاً بالمسيح رأسنا .

ولا أجهل أنْ لا قيمة عند الناس للفوضى والبلبلة نظير النظام وقوة القانون . وتظهر هذه الحقيقة عند الناس بأجلى معانيها متى كانت المخاطرة واقعة على أشياء عظيمة . وعندى أنه من القبيح ومن عدم النظام أن يشتهى جميع الناس الحكم ، أو أن يرفضوه جميعاً . فإذا تهرب الجميع من هذه الخدمة أو من تلك السلطة ، تداعى هذا التنظيم الجميل الذى تقوم به الكنيسة . فمن يقوم بتمجيد الله ؟ وأين يحتفل بهذه الأسرار

التى ترفعنا إليه تعالى ، إذا لم يكن ثمة ملك ولا رئيس ولا كهنوت ولا ذبيحة ؟

( خطاب ٢ ، ٣ - ٤ )

أما أنا فبخلاف ما قد يتصور بعض سيئى النية، لم أستهن برتبة الكهنوت طمعاً بمنصب أعلى ؛ ولا أنا إلى هذا الحد من الجهل بعظمة الله وحقارة الإنسان ، حتى لا أعتبر ما يحظى به المخلوق من الشرف باقترابه من الله ، بأى نوع كان ، فهو وحده الكائن الأسمى سناء وبهاء ، والذى هو فوق كل طبيعة مادية وغير مادية .

إذن ماذا جرى لى ؟ بمَ أفسّر عصيانى؟ توهّم الكثيرون أنى ضللت وأنى لم أكن عند ظنهم بى ، وأنى تغيرت وأبديت مقاومة وعناداً تجاوزا كل حد . . . فاعلموا أسباب سلوكى : لقد ارتعدت من تلك الصدمة المفاجئة ، فرأيتنى كقوم فقدوا رشدهم ، عند انفجار مباغت ، فلم أقوَ على التفكير ، ولم أتريّث كعادتى .

وكنت من جهة أخرى ، ومن زمن طويل ، مولعاً بكل ما يوليه السكوت والخلوة من الخيرات ، كما كنت قد وعدت الله ، فى وسط مخاطر جسيمة ، بأنى أنصرف إلى هذه الحياة ، فحينما أخذت أنقطع إليها ، وقد تجاوزت عتبتها ، وأخذ اختبارى لها يزيدنى تعلقاً بها ، لم أحتمل أن أرغم وألقى وسط الفوضى ، وأفصل عن ملجئى الأمين . فلا شىء عندى يساوى حال إنسان أقفل أبواب حواسه عن المؤثرات الخارجية ، وتخلص

من الجسد والعالم ، فلم يحفظ سوى الضرورى من الصلات بالأمور البشرية ، لكى يخلو بنفسه بالله . فيعيش فوق المنظورات ، حاملا فى ذاته التصورات الإلهية الطاهرة بلا اختلاط بأشكال الأرض المتغيرة . هذا الإنسان يغدو مع الأيام مرآة نقية لله وللأشياء الإلهية ، يقبل أنوارها بنوره — أنوارها الباهرة بنوره الشاحب — ، ويجنى سلفاً ما يرجو من الخيرات فى الحياة الآتية ؛ ويحيا فى صحبة الملائكة ، وهو على الأرض . فقد فارق الدنيا ، والروح القدس يدخله الأرجاء العليا . فمن كان بينكم مضطرماً بهذا الحب ، يفهم ما أريد أن أقول ويصفح عما جرى لى .

( خطاب ٢ ، ٥ — ٧ )

وإليكم سبباً آخر لسلوكى ، وهو ما أشعر به من الاشمئزاز من تصرف البعض : فهناك قوم ليسوا خيراً من سواهم يتقدمون إلى أقدس الوظائف ، بأيد غير مغسولة ، كما يقال ، ونفوس غير مستعدة ، ويتزاحمون على الكهنوت ، قبل أن يتأهلوا للتقرب من الأمور المقدسة ، لا يعتبرون درجة الكاهن واجباً لإعطاء مثال للفضيلة ، بل يحسبونها مورداً للرزق ؛ ولا يعدونها خدمة يلزمهم أن يقدموا حساباً عنها ، بل سلطة خالصة من كل رقابة ، وها إنكم ترونهم أكثر عدداً ممن يرعونهم ! وهم ، على فقرهم الروحى ، أشقياء ، لما يرغبون فيه من العظمة ! وأظن أنهم ، مع الزمن ومع التقدم فى الشر ، يفقدون كل مالهم من سلطة ، فإذا أخذ الجميع يعلـّمون بدلا من أن يتعلموا من الله حسب وعد الكتاب ،

وإذا كان الجميع يتنبؤون ، فشاول بين الأنبياء ، كما ورد مثلا فى التاريخ المقدس ، لذلك ، لا شيء أكثر من هذه المخازى والشرور فى العالم المسيحى . فكيف نوقف تيارها ؟ ذلك فوق قدرتنا ؛ فلنكره هذه الحال ، ولنخجل منها . فهذا بعض التقوى وليس أقلها .

( خطاب ٢ ، ٨ ) .

وآخر الأسباب وأرصنها جميعاً أنى لم أكن أعتقد ـــ وما أعتقد الآن ـــ أنى أهل لرعاية قطيع صغير أو كبير ، أو لأن أرشد النفوس . إن الراعى العادى حسبه أن يسمّن عجوله ونعاجه ؛ حسبه أن يبحث لها عن المروج الرويّة ، والمراعى الطيبة ، فيسوقها إليها ويعيدها ، ويريحها أو يمشّيها ، فيستعمل أحياناً عصاه ، وأكثر الأحيان مزماره ، ولا عمل له إلا أن يقاوم الذئاب أوقاتاً أو أن يعنى بحيوان مريض ، غير أن أكثر ما يشغله معظم الوقت أشجار السنديان ، والظل ، والشبّابات ، والقيلولة على أعشاب خضراء ، قرب ماء بارد . . . أما الناس فإذا كانوا يستصعبون الطاعة ، فأمر سياستهم ، لا شك ، أشق ، ولا سيما أمر ممارستهم الشريعة الإلهية التى تقود إلى الله ، فكلما كانت الدرجة سامية والمقام رفيعاً ، كان الخطر أكبر . فيلزم من يرتقى هذه الدرجة أن يكون كالذهب والفضة . قد تقلب من جميع الجهات ، فى الظروف والأحوال المختلفة ، وخلا من أى مادة خبيثة تقدر النار القوية أن تحرقها . وإن جسامة الشر تكون من الكبر بقدر العدد الكثير الذى يرعاه ـــ لأن الشر الذى ينتقل

إلى كثيرين أسوأ من الشر الذى يتوقف فى واحد ـ فاحسبوا أنه ليس فقط خالياً من كل عيب، بل قد بلغ أعلى درجة من الفضيلة، ومع ذلك، لا أرى أنه يستطيع اعتماداً على أى علم أو قدرة أن يقبل هذه الدرجة بلا خوف . بل أرى بكل صواب أن فن الفنون ، وعلم العلوم هو قيادة الناس ، هذه الخلائق المتقلبة ، المتعددة الأشكال .

( خطاب ٢ ، ٩ ، ١٠ ، ١٦ )

كنت مرتبكاً ، أبحث عن حل : وكنت متردداً بين خوفين : أحدهما يصرعنى والآخر ينهضنى ، وظللت طويلا متردداً ؛ أقابل بين ما يوافق وما يخالف ؛ أميل تارة من جانب وتارة من آخر ، كمياه نهر تضاده الرياح ؛ حتى استسلمت لأقواها . . . فتغلب الخوف علىّ من المعصية فاجتذبنى فطاوعته . فانظروا بأية استقامة وعدالة أريد فى النزاع أن أفضّ بين الخوفين . لا أرغب فى رتبة الكهنوت إن لم تعرض على ، ولا أرفضها إذا قدمت لى . تطلّبها إن لم تقدم لك جسارة ، وأن ترفضها متى قدموها لك ، فمعصية . فأنا بين أشد الناس جسارة وأشدهم جبانة ، إنى أجبن ممّن يندفعون نحو كل المناصب ، وأجسر من يتجنبونها جميعاً .

غير أنى ، توضيحاً للأمور ، أقول إن الوصية التى توجب الطاعة يمكنها أن تساعد من يخافون من المسئولية ، لأنه تعالى يكافئ الإيمان ، ويجعل من يثق به ويتكل عليه رئيساً كاملا . أما من يعصى أمره فلا

أدرى أى عون يجد ، وعلى أى اعتبار يعتمد . . . لأن علينا أن نخشى سماع مثل هذه الكلمات بشأن من كان يريد تسليمهم لنا : « إنى أطلب نفوسهم من يديك »، أو « كما رفضت أن تكون رئيساً وأميراً على شعبي فأنا أرفضك ولا أكون ملكك» ،أو« بما أنك لم تسمع صوتى وغلـّظت عنقك وعصيتنى ، فإنى إذا دعوتنى فلن ألتفت إلى دعائك ولن أصغى إليك » . فعسى هذه الكلمات لا تتساقط علينا من لدن الديان العادل الذى ندعوه بأناشيدنا : الرحمة ، ولكننا ندعوه أيضاً العدل .

هذه الأفكار أعادت إلىّ السكينة، فخضعت نفسى رويداً رويداً، ولانت كالحديد فى النار . وعاون هذه الأفكار الزمن والنصيحة ، فهذا قضاء الله الذى أسلمه حياتى جميعها . ولهذا لا أعصى ولا أعارض ، مثل سيدى ، لا حين يدعى إلى المحل الأول ، بل حين يساق كنعجة إلى الذبح ، فإنى أخضع وأتضع تحت يد الله القديرة ، وأطلب الصفح عن سابق تباطئى ومعصيتى ، لقد سكت ، ولكنى لن أسكت طويلا . واعتزلت مدة لأمتحن نفسى وأتعزّى فى شجنى ؛ ولكننى أرتضى الآن أن أعظم الرب فى مجمع الشعب وأمدحه على كرسى الشيوخ . فإن يكن موقفى الأول يستحق اللوم ، فما أقوم به الآن يستدعى المغفرة . . .

هأنذا أمامكم ، أيها الرعاة ، والزملاء فى الكهنوت ؛ هأنذا أمامك ، أيها القطيع المقدس والجدير بالمسيح ، رئيس الرعاة ، هأنذا أمامك

يا أبى ، منقاداً لك فى كل شىء وخاضعاً لك بحسب وصايا المسيح . فلك طاعتى ؛ فأعطنى مقابل ذلك بركتك ، ودبرنى بصلاتك ، وثبتنى بروحك لأن « بركة الأب توطّد بيوت أبنائه ». نعم ، نرجو أن نكون موطّدين أنا وهذا الهيكل الروحى ، الذى اخترته والذى أتمنى أن يكون محل راحتى إلى أبد الآبدين ، حينما أنتقل من كنيسة الأرض إلى كنيسة السماء وإلى مجمع الأبكار المسجلين فى سفر الحياة الأبدية .

هوذا دعائى ، وعسى إله السلام الذى يجلس الملوك على العرش ويرفع المسكين من الأرض ، والبائس عن المزبلة ، الذى اختار داود عبده ، وانتزعه من قطعان نعاجه ، مع أنه أصغر إخوته ، والذى وهب الكلام لمن يذيعون البشارة الجديدة ، بقوة عظيمة لكمال الإنجيل ، عساه يمسكنى بيدى اليمنى ، ويقودنى بحسب مشيئته ، هو راعى الرعاة ، ورأس الرؤساء ، فليعطنى أن أقود قطيعه بكفاية ، وليمنح شعبه القوة والعزم ، لكى يقف أمامه ، قطيعاً بهيًّا بلا عيب ، وأهلا للحظيرة السماوية فى مسكن الذين ينعمون فى بهاء القديسين ، فنذيع فى هيكله المجد جميعنا الراعى والقطيع معاً ، بالمسيح يسوع الذى له المجد إلى دهر الدهور آمين .

( خطاب ٢ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ )

# ضرورة الزهد المسيحى

## تجاه الوثنية

كان غريغوريوس قد سيم كاهناً منذ أشهر ، حين وردت إليه وإلى أبيه أنباء مقلقة جداً عن شقيقه سزير . كان سزير قد أصبح طبيباً ، وعاد إلى نزينز بعد إتمام دراسته ، غير أنه لم يلبث أن غادر موطنه الصغير ، زاعماً أنه لايتحقق له فيه ما يحلم به من الشهرة والمجد . فأقام فى القسطنطينية. فاجتذبه الإمبراطور يوليانوس إلى بلاطه ، ووعده أن يوليه مناصب رسمية رفيعة. ولكن يوليانوس كان مشايعاً متحمساً للوثنية ، وقد عمل فى مدة قصيرة على هدم المسيحية وتجديد العبادات الوثنية . فاشتد القلق فى نزينز أى اشتداد ، عندما شاع أن ابن الأسقف بين خواص الامبراطور الوثنى المضطهد . فكتب غريغوريوس إلى شقيقه الرسالة الآتية سنة ٣٦٢ ، فاقتنع سزير ، وفارق القصر الإمبراطورى .

يعلم الله ما نقاسى هنا من العار بسببك ، ولا حاجة بى إلى وصف ما نحن عليه من الحزن . فأنت أدرى به من الجميع . ولكن قبل أن أتكلم عنا ، وعما أصابنا من الجزع مما يدور عنك على الأفواه ، وعما يملؤنا من الخوف ، أود ، لو أمكن أن أسمعك ما يقال عنك وعنا من الأقاويل ، وليس من خواصّنا وحدهم ، بل من الغرباء أنفسهم والمسيحيين ممن لا يعرفوننا إلا قليلا ، فجميعهم يتحدثون عنك . وليس البعض

لا غير ، بل الجميع عموماً ، لأن الناس هم دائماً أقوى فى الحكم على سلوك غيرهم منهم على سلوكهم الخاص ! وإليك الموضوع الجديد الذى تلوكه أفواههم ، يقولون : « ابن الأسقف ، الآن فى الجيش ؛ هو يطمع فى السلطان والمجد مع الخارجين عن ديننا . إن طعم المال يغريه ، ونار الاضطهاد فى اضطرام . إنه يخاطر بخلاصه ، ولا يفتكر فى أن المجد والأمن والغنى إنما تكون بمقاومة الظروف القاسية ، والبقاء بعيداً عن القذر والعدوى . كيف يستطيع أسقفنا أن يحرض الآخرين على الصمود أمام الخطر ، وعلى الاحتراس من عدوى الأوثان ، كيف يستطيع أن يوبخ الخاطئين ، إذا كان هو نفسه غير مطمئن فى داره » . هذا وغيره مما نسمعه كل يوم من الأقوال المزعجة . ربما تكلم بعضهم بصفتهم أصدقاء ، أما الباقون ، فإنهم يناصبوننا العداء . فأى شعور ، تظن ، يكون شعورنا عند سماع مثل هذه الأحاديث ، ولا سيما أننا قد اخترنا خدمة الله ، وفهمنا أن الخير الأوحد هو فى طلب الخيرات الأبدية ؟ إن أبانا الجليل محطم مما يسمع ، وعازف عن الحياة . وأنا أسليه بما أستطيع من الكلام ، وأحاول أن أشدده ، ضامناً له حسن استعدادك ، ومؤكداً له أنك لن تطيل آلامنا . أما والدتنا الفاضلة ، فإن تعرف شيئاً عنك — لأنا حتى الآن قد حاولنا أن نخفى عنها كل شىء — فثق أنها تتألم جداً ولن تتعزى ، لضعفها بكونها امرأة ، ولعمق تقواها ، فلن تقوى على التعقل والتصبر . فإذا كنت لا تزال تكرم نفسك وتكرمنا ، فاتبع أفضل الطرق وآمنها .

إنك لتجد هنا ، بدون شك ، كل ما يلزم لكى تعيش عيشة لائقة بك ، على آن لا تكون جشعاً ، ولا مغالياً فى المطامع . هذا ، وإذا فاتت الفرصة الحاضرة فلا أدرى متى ننتظر عودتك إلينا ، أما إذا أصررت على عزمك، واستهنت إلا بما صممت عليه ، فلن أقول لك ما يسوءك ، إلا أنى أنبئك وأنذرك بأنك ستكون بين أحد أمرين : إما أن تبقى على كل حال مخلصاً للمسيحية ، فتنحط إلى منزلة المسيحى المحتقر ، وإما أن تواصل رغبتك فى المجد ، فتنزل بك حينئذ أعظم الخسائر ، ويصيبك الدخان إن لم تصبك النار .

( رسالة ٧ )

## مثل الشهداء

هوذا ملخص الخطاب الذى يقرظ به غريغوريوس أليعازر الشيخ والإخوة المكابيين السبعة الذين قتلهم أنطيوكوس أبيفان سنة ١٦٨ قبل المسيح فقد أنذروا أن يتركوا عبادة الإله الحقيق ، ويمتنعوا عن حفظ شريعة موسى ، فرفضوا وفضلوا العذاب والموت . إن غريغوريوس قد مدح شهداء المسيحيين ، كالقديس قبريانوس والقديسة جوستين ، واستوقفته بطولة أليعازر والمكابيين واستشهادهم ، قبل مجىء المسيح على الأرض .
ويعجبنا من غريغوريوس رحابة صدره إذ يحيي فعل الروح القدس فى هذه النفوس اليهودية قبل ظهور المخلص . غير أنه كانت له فى ذلك ولسامعيه من أهل نزينزغاية دعت إليها ظروف الزمان . فإن غريغوريوس يلمح فى آخر خطابه إلى اضطهاد كان يخشى وقوعه فى كنيسته ، مما جعل مثل الإخوة المكابيين حينئذ أهم وأوقع فى النفوس . وذلك الاضطهاد الذى لمح إليه هو ماوافق عبور يوليانوس إلى الشرق سنة ٣٦٢ . أو ما كان يخشاه من دسائس الإمبراطور فالانس مشايع الأريوسيين ، وقد حضر إلى كبدوكية فى سنة ٣٦٥ . والغرض الجوهرى من هذا الخطاب هو أن نشعر بما فيه من نفحات الحماسة والسخاء . فإن فيه من العبر ما يصلح للمسيحيين فى كل العصور .

من هم المكابيون الذين نحتفل اليوم بذكرهم ؟ لقد قلّت الكنائس التى تكرمهم لأنهم لم يستشهدوا بعد مجىء المسيح ، ولكنهم حريّون بإكرام الجميع ، لأنهم صبروا على العذاب والموت ، ليحفظوا شرائع آبائهم الدينية . فما كان يصنع هؤلاء الذين استشهدوا قبل آلام المسيح ، لو أنهم

اضطهدوا بعد آلامه ، ولو كان تيسر لهم أن يتشبهوا بموته لأجلنا ؟ أمن أظهروا فضيلة بهذا السمو ، بدون أن يعاينوا مثل هذا المثال ، لا يكونون أكرم وأشهم لو واجهوا الخطر وقد عاينوه وعرفوه ؟ إن هناك دليلاً خفيًّا يقنعني ويقنع جميع من يحبون الله كل الإقناع . وهو أن كل من تناهوا فى الحب قبل مجىء المسيح ، لم ينالوا هذه النعمة إلا بالإيمان بالمسيح . إن كلمة الله قد أعلنت بعد حين فى الوقت المحدد من قبل الدهور ، ولكن القلوب الطاهرة كانت تستشفها من قبل ؛ ويثبت ذلك مما نقدم من التكريم لكثيرين من قديسى العهد القديم . فلا نستهنْ بهؤلاء الرجال الذين قاسوا مرّ العذاب قبل الصليب ؛ فإنهم جديرون بأن نكرمهم ،لا لزيادة مجدهم — ولكن لكى يقوم من يمدحهم بعمل شريف ، ولكى يعجب من يسمعونه بفضائلهم ويحفظوا لها فى نفوسهم ذكراً يحثهم على التشبه به .

ماذا كان أولئك المكابيون ؟ أية تربية وأى تعليم حملاهم وبلغا بهم إلى ذروة الفضيلة والمجد ؟ إن طلاب المعرفة يبحثون عنهم فى كتاب يفصل تاريخهم . . . أما أنا فحسبى أن أقول بعض كلمات عنهم .

نشاهد أولا أليعازر ، باكورة الشهداء قبل المسيح ، كإسطفانوس بعد المسيح ، فأليعازر هو كاهن شيخ ، جليل بشعره الأبيض ، وجليل بحكمته ، قد قدم عن الشعب طول حياته ذبائح وصلوات ، وهو يقدّم

اليوم لله ذبيحة ذاته عينها ، ضحية كاملة ، تعويضاً عن خطايا الشعب جميعاً ، وفاتحة سعيدة للجهاد ، وتشجيعاً للآخرين ، بكلامه وصمته . ويقدم معه سبعة أبناء قد ثقفهم بتعليمه ، ضحية حية لذيذة عند الله ، هى أبهى وأنقى من ذبائح الشريعة جمعاء . ومن الحق والعدل أن تؤدّى أعمال الأبناء إلى مجد الآباء .

ثم نشاهد هؤلاء الشبان أسخياء ، شرفاء ، وأبناء أهلا لأم شريفة ، ومدافعين غُيُراً عن الحقيقة ، فهم أكبر من أن يعيشوا فى عهد أنطيوكس إنهم أتباع صدق لشريعة موسى ، وحراس أيقاظ على عادات آبائهم . هم سبعة ، والعدد ٧ يكرمه العبرانيون ويحترمون فيه استراحة الله فى اليوم السابع ، تدفعهم حمية واحدة ، وينظرون إلى غاية واحدة ، لا يعرفون إلا طريقاً واحداً للوصول إلى الحياة ، طريق الموت فى سبيل الله . وليسوا أقل أخوّة فى الروح منهم فى الجسد ، إنهم يتنافسون فى الموت — يا للعجب ! ويسعى كل منهم أن يخطف الآلام لنفسه من أخيه اختطاف الكنوز ، ويتعرضون إلى الأخطار فى سبيل الشريعة التى نشؤوا عليها . وخوفهم مما يهددونهم به من التعذيب دون رغبتهم فيما يخفى عنهم منه . إنما يخشون أن يكلّ الطاغى عن تعذيبهم ، أو أن يرتد بعضهم دون أن ينالوا إكليل الشهادة ، وينفصلوا على رغمهم عن إخوتهم ، هذا ما كانوا يخشونه ، ما داموا فى شك من العذاب .

ونرى أمهم الباسلة الجليلة ، فهى تحب بنيها وتحب ربها ، ويتمزق

قلبها تمزقاً لم تتعود الطبيعة مثله . فليست تشكو من رؤية بنيها يتعذبون ، ولكنها ملتاعة حذراً من أن لا يصبروا على التعذيب . تأسف على من ماتوا أقل مما تتمنى رؤية الباقين منضمين إليهم . فهى مهمومة بمن لا يزالون أحياء أكثر من همها بمن فارقوا الحياة ؛ فصراع بعضهم لا يزال غامضاً ، أما الباقون فقد تحققت لهم الراحة . قد أرسلت بعضهم إلى الله ، وهى ساهرة على أن يقبل الآخرين . أى رجولة فى قلب امرأة ! ما أعجب تقدمتها وما أشرفها ! يا لها ذبيحة كذبيحة إبرهيم ، لو لم تلزمها هنا شجاعة أعظم ! إن إبرهيم قدم حقًّا ولداً واحداً ، قدمه بسخاء ، وإن كان الولد الواحد المولود بحسب الوعد الإلهى ، وكان غاية الموعد . وأعظم من هذا أن هذا الولد كان الباكورة ونقطة الانطلاق لشعبه ، بل لجميع الذبائح المماثلة . وهذه الأم بخلاف ذلك تكرّس لله شعباً من البنين ، وهى تتفوّق على الأمهات وعلى الكهنة معاً بهذه الضحايا المتسارعة إلى الذبح ، بهذه المحرقات من الخلائق العاقلة . هذه التقادم التى تبادر إلى المذبح . . . ولا شىء يثنى تلك الأم ، لا شىء يلينها ، لا شىء يوهن شجاعتها ، مما يقدم لها من أمشاط الحديد ، ودواليب التعذيب ، ورؤوس الحراب ، ومن السيوف المرهفة ، ومراجل الزفت المغلىّ على النار ، ولا النار المضطرمة ، ولا الطاغية يتوعّد ويتهدّد ، ولا الشعب ، ولا مشهد أبنائها ، وقد تخلعت مفاصلهم وتمزقت لحومهم ، وسالت دماؤهم على الأرض .

أما ما وجّهه أولئك الشبان من الكلام إلى الطاغية فيحسن أن أذكركم به حتى يكون لديكم ، مع مثالهم فى الصراع ، مثال الأقوال التى فاه بها أولئك الشهداء فى تلك الظروف . لقد اختلفت أقوالهم باختلاف الأسئلة التى وجهها المضطهد إلى كل منهم ، واختلاف أوامر التعذيب ، والمغالاة فيه ، ولكنى أجمل ذلك بمثل واحد .

وها هى ذى أقوالهم بالتقريب :

اعلم يا أنطيوكس أنت ومن حولك أننا ليس لنا إلا ملك واحد هو الله ، منه جئنا وإليه نعود ، وليس لنا إلا مشترع واحد وهو موسى ، فلن نخونه ، ولن نهينه ، قسماً بما قاسى من الأخطار فى سبيل الفضيلة ، وقسماً بعدد ما اجترح من العجائب . ولو أن أنطيوكس آخر أهول منك تهددنا فلا أمان لنا إلا فى حفظ الوصايا والتحصن بالشريعة . وليس لنا إلا مجد واحد هو احتقارنا كل مجد فى سبيل الغاية السامية . وليس لنا إلا غنى واحد هو غنى الخيرات التى نرجوها بعد هذه الحياة . وليس عندنا إلا خوف واحد ، أن نخاف شيئاً أكثر من الله . . . لا شك أنه يلذّنا أن نرى هذا العالم ، موطن آبائنا ، وأحبابنا ، وأهلينا ، وعشراء حياتنا ، وهذا الهيكل العظيم . وتلذّ لنا روعة أعيادنا ، وكل ما يشعرنا بارتفاعنا على الشعوب كافة . ولكن هذا جميعه ليس ألذّ عندنا من الله ومن احتمال الجهاد فى سبيل الخير . عندنا عالم آخر أعلى وأبقى من كل ما يظهر . وطننا هو أورشليم السماوية : فلا يقدر أى أنطيوكس أن

يحاصرها، أو يقهرها،، هى أورشليم القوية المنيعة . وأهلنا هم جميع من يضطرمون بحمية واحدة ، وقد ولدوا تحت علم الفضيلة . وأصحابنا هم الأنبياء ، والآباء الذين ورّثونا مثال التقوى، وعشراء عمرنا هم من يحاربون اليوم معنا ويصبرون على الأذى مثلنا . السماء أجمل من هيكلنا : أعيادها أناشيد الملائكة ، وسرّها الفرد الفائق جميع الأسرار الخفى على كثيرين من البشر هو الله الذى تؤول إليه جميع الأسرار .

فكفَّ إذاً عن وعدنا خيرات خسيسة حقيرة . فلسنا نطلب الشرف بالعار ولا نشترى النفع بالخسران — لا ، لن نقوم بهذا التخريب . وكفّ عن وعيدنا وإلا تهددناك نحن بكشف ضعفك ، بل بكشف ما عندنا من عقوبة لك.فإن لدينا ناراً نعاقب بها مضطهدينا . أتحسب أنك تحارب شعوباً أو مدناً ، أو ملوكاً جبناء يكون بينهم غالب ومغلوب . . . إنك تغالب شريعة الله ، والألواح التى كتبتها إصبع العلى ، وقوانين آبائنا التى أقرها العقل والزمن ، وتغالب سبعة إخوة بروح واحدة ، عازمين أن يسجلوا هزيمتك على سبع أقواس نصر . إن كسرهم ليس مجداً لك أما أن يهزموك فذلك أقبح العار .

نحن سلالة أولئك القوم الذين قادهم عمودان من نار وغمام ، ومن انشق لهم البحر ، وجمد الأردن ، وتوقّفت الشمس، وسقط لهم العيش من السماء كالمطر ، وكانت جموع الأعداء تفر من وجههم ، كلما

بسط موسى ذراعيه وضرب العدو بسهام صلاته . وعنت لهم سباع البر وتقهقرت الملوك أمام شجاعتهم ، ولم تمسّهم النار .

فاسمع الآن شيئاً أنت تعرفه . نحن تلاميذ أليعازر الذى رأيت شجاعته .لقد حارب الأب من قبل ،وها هم أولاء الأبناء يحاربون من بعد؛ ذهب الكاهن وها هى ذى الضحايا تابعة له . . . هل تنتظر منا كلاماً آخر ؟ فلنجيبنّك مائة مرة الجواب نفسه : لن نأكل لحماً دنساً ، ولن نخضع . قد تخضع أنت لشرائعنا قبل أن نتبع شرائعك » .

أما أمهم الكريمة فهى حقًّا أهل لهؤلاء الأبناء العظام الكاملين فضيلة وتثقفاً فى الشريعة ، لقد كانت موزّعة بين الفرح والخوف ، كانت فرحة بما كانت ترى من شجاعتهم ، وكانت خائفة مما قد يعتريهم من شدة التعذيب ، هى كطائر قلق حول فراخه ، وهو يرى أفعى أو حيواناً مؤذياً يدنو من عشه ؛ كانت تدور حول بنيها ، تشجعهم بالكلام وتحرضهم ، وتشاركهم فى جهادهم ، تقول كل شىء وتفعل كل شىء لتعاونهم على النصر . كانت تمسح نقط دمهم ، وتجمع ما تناثر من أشلائهم، وتقبّل بقايا من ماتوا منهم، تتسلم واحداً بين ذراعيها وتسلّم آخر ، وتهيىء ثالثاً وهى تصرخ فيهم : « تشجعوا يا أولادى ، يا أبطالى ! تشجعوا يا حماة الشريعة ، يا حماة شيخوختى ، وحماة هذه المدينة ، هى ربتكم وبلغت بكم إلى هذه الدرجة من الفضيلة ! قليلا ، وقد تم انتصاركم . . . قليلا ، وأنا السعيدة بين الأمهات ، وأنتم السعداء

بين الشباب ، هل تأسفون على أمكم ؟ فلن أترككم. أعدكم. لست إلى هذا الحد عدو أولادى ! . . »

وبعد هذا ، مشت بنفسها وانضمت إلى بنيها . على أى حال ؟ جرت إلى النار ، وقد حكم عليها بها ، ولم تنتظر أن يدفعوها إليها ، حتى لا يمس جسدها الشريف الطاهر يد دنسة .

ها هى ذى الثمرة التى جناها أليعازر من كهنوته :

لقد تدرّب على علم الأسرار السماوية ، ودرّب عليها غيره ، فطهّر إسرائيل لا برشه بدم غريب بل بدمه هو نفسه ، فكان دمه تكفيراً سامياً .

وها هى ذى الثمرة التى جناها الأبناء من شبابهم : لم يكونوا عبيداً للذّات ، فتسلطوا على أهوائهم ، ودخلوا الحياة ، حيث لا عذاب ولا بكاء .

والثمرة التى جنتها أمهم من ولادتهم : أنها كانت فخوراً بهم مدة حياتهم فدخلت معهم إلى الراحة حين ماتوا . ولدتهم للعالم وقدّمتهم لله .

أيها الكهنة والأمهات والبنون ؛ اقتدوا بهذه الأمثلة . أيها الكهنة كرموا أليعازر أبانا الروحى ، فقد بيّن لنا بأقواله وأفعاله الطريق الأفضل . أيتها الأمهات ، كرمن هذه الأم السخية بحبكن أبناءكن حباً حقيقياً بأن

تقدمن من ولدتن للمسيح ؛ فيتقدس زواجكن بهذه التقدمة . أيها الأبناء احترموا هؤلاء الشبان القديسين وأنفقوا شبابكم لا فى الشهوات المخجلة بل بمحاربة أميالكم الرديئة ، فتنتصروا كل يوم على أنطيوكس الذى يضطهدكم بألف نوع . وأنا أطلب من كل عائلة ومن كل عمر أن يقدموا عند الحاجة محاربين أسخياء فى وجه من يحاربوننا جهاراً ، أو ينصبون لنا مكايد خفية . أرغب أن تستعينوا بأخبار الأقدمين وبأخبار المحدثين ، وتجمعوا من كل جانب ما تحتاجون إليه ، كما تجمع النحل أطيب ما فى الزهر لتبنى به قرص العسل على غاية الإتقان . فنكرّم ونعظم بيننا بإلهام العهدين القديم والجديد ، الله تعالى الذى يتمجد فى الابن والروح القدس ، والذى يعرف خاصته وخاصته تعرفه ، ويظهر ذاته لمن يحبه، ويمجد من يمجدونه، بيسوع المسيح نفسه الذى له المجد فى دهر الدهور آمين .

(خطاب ١٥ : ١ – ٤ ، ٥ – ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢)

## اتخاذ موقف صريح

مات أسقف قيصرية ورئيس أساقفة كبدوكية فى يونيو ٣٧٠ فرأى غريغوريوس النزينزى وأبوه أن باسيليوس ، وقد أصبح كاهناً من إكليرس كبدوكية ، هو أجدر من يصير أسقفاً على هذه الكنيسة العظيمة ، فكتب أسقف نزينز باسمه واسم ابنه غريغوريوس الرسالة الآتية إلى كنيسة قيصرية :

لست سوى أسقف وضيع ، ورئيس قطيع صغير . فأنا أصغر خدام الروح القدس . ولكن النعمة لا تعرف حرجاً ولا حدوداً ، فينبغى أن يفسح للصغار أن يتكلموا ، ولا سيما فيما يتعلق بالمصالح العامة والهامة ، وفيما إذا كانت المشورة آتية من شيخ ، قد يكون أكثر حكمة من عامة الناس .

إن عليكم أن تبدوا رأيكم ، لا فى مسائل ثانوية مبتذلة ، بل فى مسائل يكون لإحسان حلها أو إساءته أحسن أو أسوأ النتائج . فالمقصود هنا الكنيسة التى من أجلها تألم المسيح . والغرض هو اختيار من يجب أن يمثلها ، ويوجّهها إلى الله .

« سراج الجسد العين » وليست هذه العين التى تَرى وتُرى حسيًّا ، بل تلك التى تنظر ويُنظر إليها روحيًّا . وعلى هذا فسراج الكنيسة هو

الأسقف . وهذا ما تعتقدونه وإن لم أكتب لكم . فلا بد إذاً لاهتداء الجسد من أن تكون العين مستنيرة وإلا فلا يهتدى . وهذا ما يكون عليه رأس الكنيسة : فكما يكون الرأس يكون المرؤوسون ، يهلكون معاً أو يخلصون معاً . لذلك ينبغى الاهتمام بكل كنيسة كالاهتمام بجسد المسيح ، ولا سيما كنيستكم ، فقد كانت منذ البداية أمّ جميع الكنائس فى هذه الديار ، ولا تزال . والعالم ينظر إليها من بين سائر الكنائس ، نظره إلى نقطة الدائرة من مختلف النقط المتعلقة بها . وهذا عائد لا لأنها علّمت الجميع فى كل وقت التعليم الأرثوذكسى وحسب ، ولكن لأن الله قد أنعم عليها ، بنوع أكيد ، بنعمة الاتحاد الداخلى .

لقد دعوتمونى لبحث هذه المسألة ، فسلكتم فى هذا مسلكاً لائقاً قانونيًّا . غير أن الأيام والأسقام أوهت قواى . فإذا استعدت قوتى ، بنعمة الروح القدس ، واستطعت المجىء إليكم – ولا شىء غير ممكن للمؤمن – كان ذلك أوفق للجميع ، وأحب ما يكون إلىّ . . . وإن يغلبنى المرض ويقعدنى ، فإليكم ما أستطيع أن أقدّمه لكم من المعونة ، على بعد المسافة . فإنى على يقين أنكم لا تعدمون الرجال الأكفياء للقيام بالسلطة ، فى مدينة عظيمة طالما أحسن رؤساؤها إدارتها . غير أنى لا أرى ، بين صفوة من عندكم من الرجال السامين ، أميز من الكاهن باسيليوس ، ابننا الحبيب بالرب . أقول هذا أمام الله . إنه رجل ناصع

السيرة والتعليم ، وهو وحده من بين الجميع يستطيع ، أو على الأقل يستطيع أحسن من سواه ، أن يقابل صعوبات الساعة الحاضرة وهذا الهرج الذى يريد الهراطقة أن يفرضوه .

هذا ما أكتبه إلى الكهنة وإلى الرهبان ، وإلى القضاة ، وإلى الشيوخ ، وإلى الشعب جميعاً . فإذا كنتم عند رأيى ونجح اختيارى — — اختيار مخلص وحق اتخذته أمام الله — كنت وأكون معكم بالروح مع ثقتى بفعل الروح القدس . أما إذا خالفتم رأيى ، وقضت الحزبية ، والعلاقات والقرابة أن تبتّ فى كل شىء ، ووجب أن يعكر ضغط الشعب الهدوء اللازم ، فافعلوا ما تشاؤون ودعونى وشأنى .

( رسالة ٤١ )

كان انتخاب باسيليوس شاقاً ، وقد تأخر ثلاثة أشهر من يونيو إلى سبتمبر ٣٧٠ . فبعد كتابة الرسالة السابقة تسلم غريغوريوس الشيخ من أساقفة الناحية مجتمعين فى قيصرية رسالة للانتخاب غريبة ، يعلمونه فيها أنهم حاضرون إلى كرسى الرياسة الأسقفية ، ولما كانوا لا يميلون إلى حضور زميل مثله مشايع لباسيليوس ، لم يذكروا له أن يجتمع بهم ، ولا حددوا زمناً للاجتماع ولا غاية لحضوره . ولم يكتبوا إليه إلا تنفيذاً للقوانين التى تقضى ، فى مثل هذه الحال ، بتنبيه أساقفة الناحية . فأرسل إليهم غريغوريوس الشيخ الجواب الآتى بقلم ابنه :

بأى لطافة من قبلكم ، وأية طيبة ، وأىّ فيضان من المحبة ، تكرمتم بدعوتى إلى كرسى رياسة الأسقفية ، حيث تتشاورون ، كما أعتقد ، فى اختيار أسقف ، هذا ما أتوهمه ، لأنكم لم تذكروا لى أنه يجب أن

أحضر إلى الكرسى ، ولا لماذا ، ولا متى . فجأتمونى بتنبيهكم أنكم غادرتم كراسيكم ! كأنكم تريدون أن تغيظونى ، أو أنكم لا تكترثون لمعاونتى ، أو أن همكم كله أن تمنعونى من الحضور ، حتى لا تصطدموا بمعارضتى ، هذا تصرفكم ! إنى أحتمل الإهانة ، ولكنى أعرفكم بأفكارى : سيقدم لكم البعض مرشحاً ، والآخرون غيره ، كل واحد حسب مزاجه أو حسب مصالحه ، كما يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال. أما أنا فلا يمكننى أن أفضل أحداً — فذلك ظلم — على ابنى الجليل الكاهن باسيليوس . فمن نجد بين من نعرفهم من هو أجل منه فى حياته وأقدر منه فى كلامه ، وأكثر منه اندفاعاً إلى أسمى الفضائل ؟ وإذا اعترضتم علىّ بضعف بنيته ، أجبتكم أنكم لستم فى موقف اختيار مصارع بل معلم يشرح التعليم ! ثم أليست عنده قوة من يقوّى ويعضد الضعفاء ، متى كانوا فى هذه الحالة ؟ إذا قبلتم اختيارى ، كنت معكم وعضدتكم روحيًّا وجسميًّا . أما إذا خضعتم لبعض العوامل ، أولزم أن تنتصر الحزبية على العدالة ، فأنا سعيد بأنى تركت جانباً . وليكن هذا عملكم وحدكم .

وصلوا من أجلى .

( رسالة ٤٣ )

لم تكف كتابة الرسائل لانتخاب باسيليوس أسقفاً ، ولزم أن يخاطر غريغوريوس الشيخ بحياته فى سبيل ذلك . وإليك مايرويه غريغوريوس النزينزى عن هذا الحادث فى تأبينه لأبيه :

كان عدد الأساقفة المنتخبين يحتاج إلى صوت لإعلان النتيجة . وكان والدى محطّماً من الهرم والمرض ، فأفلت من سريره ومضى إلى

قيصرية ، بنشاط الشباب ، بل بالأحرى ــ محمولا . ولم يكن إلا جثة ، لا يكاد يقوى على الوقوف ، ولكنه واثق بأنه إن يمت فى هذه السبيل فقد مات ميتة جميلة ، أما هناك ، فقد حدث ما لا يحدث عادة ، فقد شدّده العمل ، وجدّدت الغيرة شبابه ، فترأس الانتخاب وأدار الجلسات ، وأجلس المنتخب على كرسى الرياسة ، ثم عاد إلينا على محفة ، بل على مركبة إلهية .

( خطاب ١٨ ، ٣٦ )

# غريغوريوس والفقراء

**صر إلهاً للفقير**

**مقتدياً بمراحم الله**

ألقى غريغوريوس هذا الخطاب ، على الأرجح ، فى نزينز . وكان غرضه أن يحمل مسيحيي هذه المدينة على إنشاء ملجأ للفقراء ، كما فعل باسيليوس ، صديقه فى قيصرية .

ويحق لغريغوريوس أن يتكلم عن المحبة والإحسان ، وقد كان ، طول حياته ، محباً ومحسناً . وما كان ليتصور الكمال إلا فى ممارسة المحبة وخدمة القريب .

وكان غرضه أن يبين أن المحبة هى أولى الفضائل . وبعد أن يعدّد الفضائل ويبين قيمتها ، يقضى للمحبة بالتفوق عليها جميعاً ، وقد استقى ما جاء فى خطابه الطويل من التوراة ؛ وكان بتلك الطريقة يعرّف المؤمنين بالكتب المقدسة .

ثم ينتقل إلى وصف الفقراء وبؤسهم ولا سيما البُرْص ( المجذومين ) ، ويقول إن بذخ بعض الأغنياء إهانة صارخة فى وجه الفقراء .

ويذكر الأسباب التي تدعو إلى الإحسان ، فمنها جودة الله الذي نلنا منه كل شيء . . . ويرد على من يعتذرون عن العطاء بقولهم: هو الله تعالى قد جعل الناس فقراء ، وأغنياء ، فيبين إلحاح الكتب المقدسة بهذا الواجب واجب الإحسان .

ومن دواعي الإحسان ما يعده الله للمحسنين من الجزاء ، وخصوصاً مغفرة الخطايا . وأتى بمثل السامري الذاهب من أورشليم إلى أريحا ، وبمشهد الدينونة الأخيرة الوارد في الإنجيل ، حيث يكون الحكم على الخالصين والهالكين متوقفاً على إحسانهم إلى المسيح في شخص المساكين .

## الخطاب

أنتم فقراء مثلي ، أيها الإخوة ، فنحن جميعنا متسوّلون محتاجون إلى نعمة الله ، وإن ظن واحد أو آخر أنه فوق الآخرين ، قادراً الأمور على مقياسه الصغير . . . فاستقبلوا هذا الخطاب على الفقراء ، بصدر رحب وقلب كريم . لكي تغتنوا بغنى ملكوت السماء . وصلوا معي حتى أوزع عليكم هذه الكلمة بسعة ، فأغذي نفوسكم ، وأكسر للجياع هذا الخبز الروحي ، إما بإمطاره من السماء ، وإعطائكم إياه كما صنع موسى من قبل (خبز الملائكة) وإما أن أغذي ببعض الخبزات ملايين من البشر في برية هذا العالم حتى يحيوا ، كما صنع يسوع ، الخبز الحقيقي وصانع الحياة الحقيقية .

## أولى الفضائل المحبة

أى فضيلة بين الفضائل تفوق الأخَر ؟ ليس من السهل وجودها وإعطاؤها حق الصدارة وشارات النصر ، إن مرجاً مغطًّى بمختلف الزهر العطر ، لا يسهل تمييز أجمل أزهاره وأذكاها . فكل منها تنافس الأخرى وتغرى الشم والنظر بعطرها ولونها لتحملك على قطفها قبل سواها . وأرى أنه لا بد من التفكير قبل الحكم .

جميلة هى فضائل الإيمان والرجاء والمحبة . فيشهد للإيمان إبرهيم ، لأنه تبرر بالإيمان ، وللرجاء أخنوخ ، فهو أول من ترجى أن يدعو باسم الرب . أما المحبة فيشهد لها الرسول الإلهى الذى لا يتردد فى أن يحرم نفسه من أجل شعبه . ويشهد للمحبة الله نفسه ، واسمه المحبة « الله محبة » .

جميلة هى فضيلة الضيافة وشاهدها لوط فى صدوم ، إذ لم يكن على أخلاق سكانها ، وراحاب التى لم تتصرف كبغى بل مُدحت وخلصت بسبب الضيافة ؛ جميلة هى المودة الأخوية ، وشاهدها يسوع وقد ارتضى لا أن يدعى أخانا فحسب ، بل أن يتألم من أجلنا ؛ جميل هو الحلم ، والشاهد على ذلك المسيح نفسه فإنه لم يكتف بألا يطلب فرقة من الملائك لصد مهاجميه ، ولا بأنه وبّخ بطرس لشهره سيفه ، بل شفى أذن الذى ضربه بطرس .

وسيفعل مثل هذا من بعده إسطفانوس تلميذه، إذ صلى من أجل من كانوا يرجمونه .

جميلة هى الوداعة ، يشهد لجمالها موسى وداود اللذان يثنى عليهما الكتاب أكثر من سواهما، ويشهد لها معلمها الذى لا يخاصم، ولا يصيح ، ولا يسمع صوته فى الساحات ، ولا يقاوم من يقودونه إلى التعذيب .شىء جميل الغيرة، يشهد لها فنحاس الذى فتك بسيفه بالمدينية والإسرائيلية، ليرفع العار عن إسرائيل، وجعل له بذلك اسمًا . وشهد لها من بعده من قالوا: « غرت للرب » ، « غرت عليك غيرة الرب » ، « غيرة بيتك أكلتنى » . وليست هذه التعابير أقوالا بل هى عواطف صحيحة .

جميلة هى الإماتة الجسدية ، يثبت لك ذلك بولس الرسول الذى كان يمارسها دائماً وكان يخاف على من كانوا يعتمدون على نفوسهم، ويخضعون للشهوات البدنية ، فليقنعك بذلك يسوع الذى جاع وجرب وانتصر على المجرب .

جميلان هما الصلاة والسهر ، يقنعك بذلك الإله الذى سهر وصلى ، قبل آلامه . جميلتان هما الطهارة والبتولية ، يؤكد لك ذلك بولس الذى بيّن فضل الزواج والبتولية؛ ويسوع الذى ولد من عذراء لكى يشرّف الولادة ويجعل البتولية فوقها قدراً . جميلة هى القناعة؛ يقنعك بذلك داود ، إذ أبى أن يمس الماء ، محمولا إليه من بئر بيت لحم ، وقدّمه ذبيحة، ولم يشأ أن يروى عطشه بتعريض أحد للخطر .

جميلة الوحدة والحياة الهادئة، لقد علمنى ذلك كرمل إيليا، وبرية يوحنا المعمدان ، وجبل يسوع ، حيث نراه ينفرد غالباً وينعزل فى

السكون . جميلة هى البساطة ، فقد علمنى إياها إيليا باستراحته عند الأرملة ، ويوحنا المعمدان بلبسه ثوباً من وبر الجمال . . . جميلة هى فضيلة التواضع ، والأمثال عليها كثيرة ، ترد من جهات مختلفة ، من جهة المخلص ومعلم الجميع : فإنه لم يكفه أن يتواضع فيأخذ صورة عبد ، وأن يعرض وجهه لإهانة البصاق ، ويوضع فى مصاف المجرمين ، هو الذى كان يطهر العالم من الخطيئة ، بل وقف موقف العبد وغسل أقدام تلاميذه .

أمور جميلة هى بذل المال واحتقار الغنى ، يشهد على ذلك زكا العشار والمسيح نفسه ؛ فقد أعطى زكا معظم ماله لمرور المسيح بداره ، والمسيح بيّن للشاب الغنى أن الكمال فى التخلى عن المال ، وخلاصة القول عن هذا كله أن التأمل شىء جميل والعمل شىء جميل ؛ أحدهما يرفعنا عن هذه الدنيا ويحملنا إلى قدس الأقداس ، والآخر يستقبل المسيح ، ويخدمه ، ويبرهن له عن حبه بالأفعال .

كلٌّ من هذه الفضائل طريق خلاص ، يوصل إلى إحدى المنازل الأبدية السعيدة ؛ وكما أن هنا على الأرض حالات مختلفة من الحيوات ، فعند الله منازل كثيرات تنقسم وتتجزأ بحسب الاستحقاق . فهذا يمارس فضيلة ، وذاك يمارس أخرى ، وآخر يمارس فضائل كثيرة ، وغيره يمارسها جميعها ، لو استطاع . ولكن فليتقدم ! فليرغب فى التقدم ! فليتبع آثار من يسير أمامنا ويرشدنا ، ومن يسلك بنا فى الطريق الضيق ، ويدخلنا

فى الباب الحرج ، ويبلغ بنا إلى سعة السعادة السماوية .

فإذا تأملنا فيما علّمه بولس والمسيح نفسه ، رأينا أن أول الوصايا وأعظمها ، وخلاصة الشريعة والأنبياء : المحبة ، فأستخلص من ذلك أن جوهر المحبة هو حب الفقراء ، والشفقة والعطف على إخوتنا فى البشرية . ولاريب فى أنه ليس بين الفضائل جميعها فضيلة تكرّم الله مثل الرحمة ، ولا أقرب إلى الله منها : الحق والرحمة يسيران أمامه ، فيجب تقديم الرحمة على الدينونة ، ولا فضيلة كالإحسان جديرة بإحسبان من يكافئ بالعدل ، ويتخذ الرحمة عياراً و ميزاناً .

## بؤس الفقراء ولا سيما البرص

ينبغى أن نفتح قلبنا لجميع الفقراء ، ولجميع المعذبين من أية علة كانت ، وفقاً للوصية التى تأمرنا أن نفرح مع الفرحين ونبكى مع الباكين . ولما كنا بشراً وجب علينا أن نؤدى لسائر البشر نصيبهم من طيبتنا . مهما كانت تعاستهم : الترمل ، اليتم ، النفى ، قسوة الأسياد ، تشدد محصلى الضرائب ، غارات قطاع الطرق ، جشع اللصوص ، وغرق السفن ، هؤلاء جميعهم حريون بالشفقة ، تحدّق عيونهم فى أيدينا كما نحدّق نحن فى يدى الله ، متى كنا فى حاجة إلى شىء . ومن افتقروا بعد غنى فهم بين البائسين أحق بالعطف ممن تعودوا البؤس . وأحق

البؤساء خاصة بشفقتنا هم المصابون بداء الجذام ، وقد قرض المرض لحومهم حتى العظام .

إن أمامنا مشهداً مرعباً حقيقاً بالرأفة ، لايصدّق من لم يرَه فظاعته : هناك بشر قد أمسوا جثثاً وهم أحياء ، مشوّهون فى مواضع كثيرة من جسومهم ، حتى ليجهلهم من كان يعرفهم من قبل . يعرّفون بأنفسهم بذكر والدهم ، أو والدتهم ، أو أخيهم ، أو بذكر موطنهم ؛ فيقولون لنا : « أنا ابن فلان أمى فلانة ، اسمى كذا ؛ كنتَ قبلا صديقى وزميلى . . . »

تلك لغتهم ، لا يمكن أن تعرفهم بما كان لهم قبلا من الملامح ، رعاهم الداء ، ذهب مالهم ، وفقدوا أهلهم وأصحابهم وجسمهم نفسه . هم وحدهم يحنون على ذواتهم ويكرهونها ، ولا يدرون هل ينبغى أن يتحسروا على ما فقدوا من جسومهم ، أو على ما بقى منها ، وعلى ما قرض المرض ، أم على ما سيقرضه ؟ جزء ذهب قبل الدفن ، والجزء الآخر لن يجد من يدفنه .

حتى أفضل الناس وأكثرهم محبة ، لاشعور عندهم نحوهم . ننسى أمامهم أننا لحم وأننا نلبس جسداً بائساً ، وأننا أبعد من أن نعنى بهؤلاء البشر الذين من جنسنا ، وقد يظهر لنا أن الهرب منهم أضمن لوقاية جسدنا . فكثيرون منا يقتربون عند الحاجة من جثة نتنة ، وكثيرون يصبرون على نتن جثث البهائم ، أو أن يغوصوا فى الأوحال ، أما البرص

فإنا نتهرّب منهم جهدنا ، يا للقساوة — ونأنف أن نتنسم الهواء الذى يتنسمونه .

من أكرم من والد على ولد ؟ ومن أحنّ من أم ؟ أما الأبرص فالطبع ينفر منه . فالوالد وإن تحسر على ولده الذى ولده ورباه ، وعده محل عينه ورفع من أجله لله كثيراً من الدعوات ، والده هذا يطرده ، باختياره وعلى رغمه . والأم تتذكر ما تحملت من الألم من أجل ولدها ، وتكلمه وقلبها يتمزق ، بلهجة مؤلمة . تراه أمامها وتبكيه كأنه قد مات ، تقول : «يا لك ولداً تعساً لوالدة تعسة ، نازعنى إياك المرض فنزعك منى ، يا لك من ولد يرثى له ، ولد لا أعرفه ، وكأنى ما ربّيتك إلا للمهاوى وللجبال والقفار ! ستعيش مع الحيوانات البرّية ، لاجئاً إلى الكهوف وشقوق الصخور ، ولن يراك غير أفراد قلائل من أتقياء البشر ! »

تقول هذا وتذرف الدمع الغزير ، تود أن تقبّل ولدها ولكن هذه الأم الشقية تخشى لحم ابنها خشية العدو . . . يرضى الإنسان أن يعيش مع قاتل ، ويستقبل فى بيته زانياً ، ويجلسه إلى مائدته ويشاركه فى نفاقه ، ويصادق من صنع إليه شرًّا ؛ ولكنه يهرب ممن لم يسئ إليه ، لمرضه كأن مرضه جريمة . فالرذيلة فى رتبة أفضل من المرض .

يمنع الناس البرص عن المدن ، وعن المنازل ، والساحات العامة ، وعن الطرقات ، والأعياد والولائم ، ويمنعونهم — يا للبؤس — من الماء

فلا تجرى لهم العيون كما تجرى للآخرين . وأغرب من ذلك أننا ، ونحن نطاردهم ، لنجاستهم ، نستردّهم نحونا ، لأننا لا نقدّم لهم مسكناً ، ولا مطعماً واجباً ، ولا عناية بجراحهم ، ولا ملبساً يستر على الأقل سقمهم . فنراهم ، ليل نهار ، مشردين ، محتاجين ، عراة ، بلا مأوى يشيرون إلى قروحهم ، ويذكرون حالهم الماضية ، مستجيرين بالله ، مستعينين برفاقهم ، بدل ما فقدوا من أعضائهم . فمن لا يحس بقلبه يتقطع لشكاتهم ؟ وأى أذن تقوى على سماع نواحهم ؟

على حين أن طبيعتهم طبيعتنا ، وقد تكوّنوا من التراب الذى تكوّنا منه ، ولهم عضلات وعظام مثلنا ، وقد كسوا جلداً ولحماً كجلدنا ولحمنا ، كما يقول أيوب . وخلقوا على صورة الله ، ولعلهم يحتفظون بها خيراً منا ، بالرغم من تفسُّخ جسومهم ، وهم يلبسون المسيح بحسب الإنسان الباطن نظيرنا ، ولهم حق فى الشرائع نفسها ، وفى كلام الله ، وفى العهدين القديم والجديد ، وفى الاجتماعات الطقسية نفسها ، وبالأسرار وبالرجاء مثلنا ، ومن أجلهم مات المسيح حامل خطايا العالم ، وهم شركاء فى ميراث الحياة الأبدية ، وإن حرموا حق الإرث فى الحياة الأرضية . دفنوا مع المسيح وقاموا معه ، وإن كانوا يتألمون مع المسيح فسوف يتمجدون معه .

فما عسى أن نفعل ، نحن الذين ساهمنا فى الاسم العظيم ، الاسم الجديد ، الاسم الذى نلناه بالمسيح . نحن الذرية المقدسة ، الكهنوت

الملكى ، الشعب المبرر المختار ، الغيور على الأعمال الصالحة الخلاصية؛ نحن تلاميذ المسيح الوديع الطيب ، المسيح الذى حمل أمراضنا ، وتواضع حتى طبيعتنا ، ولبس فقر بشريتنا ، هذه الخيمة الأرضية ، واحتمل لأجلنا الآلام والأسقام لكى يغنينا بلاهوته ، ما عسى أن نصنع أمام هذا المثال مثال الرحمة والشفقة ؟ ما عسى أن تكون أفكارنا وموقفنا إزاء هؤلاء المرضى ؟ فهل نحتقرهم ؟ هل نهرب منهم ؟ هل نتركهم كالجثث والأشياء الشائنة وأخبث الحيات وأضرى الحيوانات ؟ لا ، يا إخوتى ! ليس هذا ما يليق بنا ، نحن نعاج المسيح ، الراعى الصالح الذى يعيد الخروف الضال إلى الحظيرة ، ويبحث عن النعجة المفقودة ، ويقوّى الضعيفة ؛ وليس هذا مايليق بالطبيعة الإنسانية التى جعلت الرحمة شريعة ، لأن البؤس المسيطر على الجميع علمها الحنان والرحمة .

## ذم البذخ الفاحش

### عند بعض أغنياء كبدوكية

أيقيم هؤلاء البؤساء فى العراء ، فى حين نقيم نحن فى دور فخمة ، مزدانة بمختلف الحجارة ، زاهية بالذهب والفضة ، والفسيفساء ، والنقوش المختلفة ؟ ! هى مصايد خداعة للعيون ! وبينما نملك كل هذا ، ألا نبنى سواها ؟ ولمن ؟ قد لا تكون لورّاثنا ، بل للغرباء ، لقوم ليسوا منا ،

ولا يحبوننا ، بل يكرهوننا ويحسدوننا . . . أيرتجفون برداً فى أطمارهم البالية ،وقد لا تكون لهم الأطمار الضرورية ،على حين نرفل نحن فى الثياب الناعمة الفضفاضة من الحرير والكتان ؟ ونظهر بها بمظهر شائن ( هو الزائد المتجاوز الحد ) وعلى حين نحتفظ بغيرها من الملابس الزائدة ، طعماً للعث وللزمان الذى يبلى كل شىء . أيحتاجون إلى أقل ما يمكن من الغذاء ؟ — يا للبذخ الذى أعيش فيه ، ويا لشقاء هؤلاء البشر المساكين ! — أيظلون منطرحين على أبوابنا ، منهوكين ومتألمين من الجوع ، ولا وسيلة طبيعية عندهم للسؤال ، لقد فقد بعضهم الصوت وعجزوا عن الأنين ، أو فقدوا يدهم ليبسطوها للاستعطاف ، وغيرهم لا يقدرون على البكاء ، وشر ما نزل بهم أخف عندهم من سواه ، فقد رضوا بفقد عيونهم حتى لا يبصروا ما هم فيه من الخراب .

وبينما هم على هذه الحال ، نرانا نتمتع بالولائم ونستريح على فرش ناعمة معلاّة ؛ وموائدنا أرضها مفروشة بعاطر الأزهار ، وجوها عابق بالطيب الذكى ، لنزداد رخاء ورخاوة ، ولا بد لنا من غلمان ، حول الضيوف ، يقفون صفاً منظماً ، مسترسلى الشعور مخنّثين ، محفوفى الوجوه ، ومزينين كالدمى ، ليروقوا فى العيون الفاجرة . وهناك غلمان آخرون يقدمون الأكواب بأطراف أناملهم كما تقتضى اللباقة والرشاقة . وغيرهم يروّحون على الضيوف بالمراوح ليطرّوا تلك الكتل من اللحم . وعلى

الماء والهواء والتراب وجميع العناصر أن تعاون على إمتاعها . وعلى رؤساء الطباخين ومعاونيهم أن يأتوا من المهارة بما يتجاوز الحدود فى إعداد ما يغرى نهم بطونها ، وإشباع هذا الحيوان الذى يعجّل نهمه فى هلاكه . وبينما لا يجد أولئك البؤساء ما يروى عطشهم من الماء القراح ، نرانا غارقين فى الخمور . ولا بد أن نكون ، أو أن يقال عنا إننا متأنقون ومسرفون ، كأننا نخجل ألا نعد من الفاسقين وعبّاد البطون .

## واجبنا نحو الفقراء

لماذا لا نساعد ، ونحن أحياء ، من هم بشر مثلنا ؟ لماذا ونحن لحم لا نسخو على بؤس اللحم ؟ لماذا نغرق فى اللذات وسط إخوة بؤساء ؟ ليتنى أكون معدماً ، ما دام حولى معدمون، ليتنى أغطّى بالجراح إن لم أضمّد جراحهم ، وأحرم الطعام ، واللباس، ولا آوى إلى بيت ، إن لم أقدم لهم الغذاء ، وأوزّع عليهم الملابس، ما استطعت، وآويهم تحت سقفى ! إن ما يجب عمله واحد من اثنين : إما ترك الكل من أجل المسيح ، واتباعه تحت الصليب ، لربح المسيح عوض الكل ، والارتفاع بالاتضاع ، والغنى بالفقر ، وإما أن نقاسم المسيح ما عندنا فيتقدس بمشاركته ، ونعطى جزءاً منه مـَن ليس عندهم شىء . ولكننى إذا كنت أزرع لنفسى وحدى ، فليأكل غيرى ما زرعت ، و « لتنبت لى الأرض بدل القمح شوكاً ، وبدل الشعير علّيقاً » كما قال أيوب .

## جودة الله

### تحثنا على ممارسة المحبة

وعلى هذا، فلنطرح عنا بذخ الدنيا ، ونضمن ما يقدمه لنا الغنى من تحقيق خلاصنا بالصدقات . لنعط الفقراء جزءاً من أموالنا ، فنغتنى بملكوت السماوات ! ابذل شيئاً من مالك ، لخير نفسك ، لا لمتعة جسدك فقط . أعط جزءاً لله ، لا للناس وحدهم، حرم بطنك شيئاً وخص به روحك . أنقذ من النار حاجة ، وأمّن عليها من نار الجحيم المحرقة ، أعط هذه الحياة جزءاً ولا تنس الحياة التى تستقبلك . أعط قليلا من أعطاك كثيراً ، أعط الكل من أعطاك الكل ، فلن تفوق الله سخاء ولو تخليت له عن كل مالك ، وعن ذاتك .

كلما أعطيته زادك ، ولن تعطيه شيئاً ليس له . وكما أنه يستحيل أن يسبق أحد ظله أو ترتفع قامته فوق رأسه ، هكذا يستحيل أن نغلب الله فى العطاء ، لأننا لا نعطيه شيئاً ليس له ، فلا يمكننا أن نفوقه أو أن نساويه كرماً .

فكر : من أين لك أنك كائن ، وأنك تتنفس وأنك تفكر ؟ ومن أين لك ، فوق كل ذلك ، أن تعرف الله ، وأن تترجى ملكوت السماوات وأن تساوى الملائكة شرفاً ، وتتأمل مجد الله الآن فى مرآة وألغاز ، ومن

بعد ، وجهاً لوجه ، وأن ترث مع المسيح ، وتصبح أنت نفسك إلهاً .
وإذا تكلمنا بصراحة وجسارة ، فمن أين ؟ وممن يأتيك هذا جميعه ؟
وإن تكلمنا عن النعم ، قليلها وكثيرها ، فمن يسّر لك أن ترى جمال
السماء، ومسير الشمس ، ومسرى القمر ، وعدد النجوم ، وما بينها من
الانسجام والنظام ، انسجام القيثار ، وتعاقب الفصول ، والدهور ،
ودوران السنين ، واختلاف الليل والنهار ، وإثمار الأرض ، وميعة الهواء ،
وسعة البحر هائجاً وهادئاً ، وعمق الأنهار ، وتحرك الرياح ؟ من أعطاك
المطر ؟ وزرع الأرض ، والغذاء ، والفنون ، والشرائع ، والقوانين ،
والتمدن ، وإمكان الكثيرين من أعضاء أسرة واحدة أن يعيشوا معاً ؟ كيف
يمكن أن يكون بعض الحيوانات الداجنة — لخدمتك وبعضها لغذائك ؟
من أقامك سيداً وملكاً على كل ما على الأرض ؟ أليس هو الذى
يطلب منك الآن ، قبل كل شيء ، أن تكون كريماً رحيماً . أفلا
نخجل بعد كل ما قبلنا ، ومع كل ما نرجو أن نقبل من الله ، ألاّ نبادله
هذه الرحمة ؟ لقد ميزنا من الحيوانات العجم ، وأعطانا وحدنا العقل
على الأرض ، أفنمسي لأمثالنا حيوانات عجماء ؟ أأفسدنا البذخ إلى هذا
الحد ؟ وجنّننا ، فصيّرنا ما أدري ماذا ، حتى لنتصور أننا من طبيعة
أسمى من طبيعتهم ؟

فلنتشبه بمسلك الله ، الشريف ، السامى : فإنه يمطر على الأبرار
والفجّار ، ويشرق الشمس على الجميع ؛ بسط الأرض فسيحة لكل

من دب عليها ، بغاباتها ، وينابيعها ، ومجارى مياهها . ومنح الطيور الهواء ، والسمك الماء ، وأفاض على الجميع فيضاناً مما هو جوهرى لقيام الحياة . لم يحاصّهم فيه ، ولا قيده بسلطان ، ولا ضرب عليه نطاقاً ؛ بل جعله تحت يدهم مشاعاً ، محترماً بذلك كرامة الطبيعة فى كل مخلوق ، ومبدياً لنا غنى جوده .

أما البشر فبخلاف ذلك ، يخفون الذهب والفضة ، والملابس الناعمة غير اللازمة ، والحجارة الثمينة ، وسائر الأشياء من شارات الحرب والخصام ، والظلم القديم ؛ ثم يصوّبون إلى إخوانهم فى جنوبهم نبال لحاظهم ، ويقفلون باب الرحمة فى وجوه البائسين من أمثالهم ولا يرضون أن يبذلوا من فائض مالهم ما يسدّ عوز المحتاجين .

## ظهر البؤس فى العالم بعد الخطيئة

يا للجهالة ! يا لحماقة هؤلاء الناس ! ألا يخطر ببالهم أن الفقر والغنى ، والحرية والعبودية ، وكل ما يدل عليه مثل هذه المسميات قد دخل فى العالم مدخل أمراض عامة ، تبعاً للخطيئة ، ونتيجة لها ، وقد قال الرب : « لم يكن ذلك فى البدء » لا ، والذى خلق الإنسان من الأصل تركه حرّاً ، سيد نفسه ، ليس عليه إلا أن يطيع ما وضع عليه من وصية . وهو فى سعة من العيش ، فى فردوس نعيم . وأراد الله أن يمنح الجنس

البشرى جميعه هذه الحالة السعيدة بواسطة الإنسان الأول . وكانت الحرية والغنى متوقفين على حفظ الوصية ، لا غير . على حين أن الفقر الحقيقى والعبودية قد نتجا من مخالفة هذه الوصية .

ومن هنا جاء الحسد ، والشقاق ، ومن هنا جور الحية الماكر الذى يغرى الأقوياء بالضعفاء . فانقسم الجنس البشرى أحزاباً وأمات الحرص ما فى الطبيعة من العواطف النبيلة . أما أنت فانظر على الأقل إلى المساواة الأولى ، لا إلى الانقسام ؛ واحترم نفسك ، وحافظ على جنسك من العار ، آس المرض ، خفف الفقر ، وأنتما أيها القوى والغنى ساعدا المريض والفقير ، وأنت أيها الواقف أسعف الواقع والمكسور ، وأنت أيها المتفائل أسند المتشائم ، وأنت أيها الناجح شجع الفاشل ، أظهر لله شكرك على أنك بين القادرين على صنع الخير ، لا بين المعوزين المحتاجين ، وليس عليك أن ترفع بصرك إلى أيدى الآخرين بل الآخرون ينظرون إليك . كن غنيًّا لا بالتباهى بل بالرحمة ، لا بالذهب بل بالفضيلة — بالفضيلة فقط ؛ كن أشرف من جارك بأن تظهر أكرم منه نفساً ، كن إلهاً للفقير فى تشبهك برحمة الله ! فما من شىء يقتبسه الإنسان من الله مثل الرحمة ... ساعد المساكين ، قدم لهم طعاماً ، أعطهم ملابس ، ضمد جراحهم ، فتش عن مصائبهم ، حرضهم على الصبر ، لا تخف واقترب منهم .

## التضامن الإنسانى

### يدعو إلى ممارسة المحبة

كل نوتىّ عرضة للغرق ، وخصوصاً إذا كان جسوراً ، وكل إنسان ذى جسد هو أيضاً عرضة للأمراض الطبيعية ، وخصوصاً إذا سار متطاولا ، لا ينظر إلى المطروحين أمامه على الأرض . فمدّ يدك إلى من يغرق ، ما دامت الريح مؤاتية لك ، وأحسن إلى البائس ما دمت موسراً، ناجحاً . لا تنتظر أن تختبر بنفسك ما فى القسوة على المساكين من الشر ، وما فى العطف عليهم من الخير . لا تحمل الله أن يمدّ يده عليك كما يمدّها على من يترفعون على الفقراء أو يتغافلون عنهم ، تعلّم من شقاء غيرك ، تعلم أن تعطى المحتاج قليلا . فلا قليل عند من لا يملك شيئاً ، ولا عند الله ، إذا كان العطاء على قدر المستطاع . وإن لم يكن لديك ما تعطى ، فأعطِ من نشاطك، أعط من دموعك: فذلك أعظم تفريج لغم المعذب ، أن يجد قلباً يعطف عليه ، ويخفف شيئاً من شقائه .

فيا إنسان ، ألا تكترث لإنسان مثلك أكثر من اكتراثك لدابة من الدواب ؛ فلو أن هذه الدابة وقعت فى حفرة أو شردت ، لكلفتك الشريعة أن تخرجها أو أن تردّها . أما يجب علينا من الرفق بأشباهنا وأمثالنا مثل ما تطلبه الشريعة من الرفق بالبهائم ؟

## حجج من يحاولون التخلص من واجب المحبة

### فى نظام الكون وإرادة الله

ومن المبكيات أن يكون بيننا أقوام أبعد من أن يترفقوا بالمساكين أو يساعدوهم . يتجاسرون أن يقولوا : « إن بؤسهم من الله ونعمتنا من الله . فمن أنا حتى أعارض أحكام الله ، وأظهر أنى أكرم منه ؟ فليتألموا ، فليشقوا فليبتلوا ، فتلك هى إرادة الله » . هؤلاء الناس لا يحبون الله إلا حين يلزم أن يحتفظوا بمالهم ، ويحتقروا البائسين ، فيبينون بكلامهم أن نجاحهم ليس من الله : وأى إنسان يعتقد أن الله قد أعطاه ما أعطاه ، ويستطيع أن يعتقد فى الفقراء مثل هذا الاعتقاد ؟ لأن من نال شيئاً من الله يستخدمه كما يريد الله .

أما أن يكون العذاب قصاصاً من الله فهذا أمر لا يمكننا أن نبتّ فيه برأى ، ما دمنا وأحوال العالم المادية تتقاذفنا كما تتقاذف الأمواج السفينة . فمن يدرى : أيبتلى هذا الإنسان من أجل رذائله ، أم يسعد ذاك من أجل فضائله ؟ أفلا يكون العكس فيرتفع هذا بسبب شروره ، ويمتحن الآخر بسبب فضيلته ؟ أوَلم يرتفع هذا إلى مرتبة عالية ليسقط منها سقوطاً مريعاً ، يُمد له بالأجل فيفرح حيناً حتى تمتلئ كأس شره ، فينزل به القصاص العادل ؛ وسيمتحن ذاك كالذهب فى البوتقة حتى يتطهر من كل خبث ؟ إذ لا أحد من البشر خال من كل عيب .

إنى أحاذر كل الحذر أن أجزم بأن الإخفاق هو قصاص الرذيلة ، وأن النجاح جزاء الفضيلة . فقد يحدث أحياناً أن تكون المصائب شفاء لرذائل الأشرار ، والفضيلة داعياً لسعادة الأبرار . غير أن ذلك ليس حكماً مطرداً فى هذه الحياة ، بل هو محفوظ للحياة الآتية ، حيث ينال البعض جزاء الفضيلة والآخرون عقاب الرذيلة . كما يقول الكتاب : « يقوم هؤلاء للحياة ، والآخرون للدينونة » .

## أهمية واجب المحبة

احترموا فوق كل شىء وصية المحبة . . . فما هذه الوصية ؟ انظروا بأى إلحاح وبأى إخلاص أعطانا الله هذه الوصية . إن كتّاب الوحى لم يكلمونا مرة أو مرتين عن المساكين بلسان الروح القدس ، ولم يكلمنا عنها بعضهم فقط دون سواهم ، أو تكلم بعضهم أكثر وآخرون أقل كأن الأمر ليس من الأهمية بمكان . بل كلهم تكلموا . وكل منهم قد تكلم بحماسة ، هى أول ما توجهوا به إلى مستمعيهم ، تارة بالتشجيع وطوراً بالتهديد ، ومرة بالتوبيخ أو بالمديح لمن يمارسونها ؛ وكان مرادهم من ترديد هذا الكلام دوام المحافظة على هذه الوصية. يقول الرب : « إنى بسبب بؤس المساكين وأنين الفقراء أريد الآن أن أقوم » ومن لا يرهب الرب إذا قام ؟

ويقول : « قم يا رب ، يا إلهى ولترتفع يدك ! لا تنس المساكين » .

فلنصرف عنا غضب من يقوم مثل هذا القيام ، لا ننتظر حتى نراه يرفع يده على العصاة أو يرشق سهامه على المتصلبين : إنه « لم ينس صراخ المساكين » ؛ « لن ينسى المسكين إلى الأبد » ؛ « عينا الرب على المسكين » ، ويقول أيضاً : « جفناه يفحصان البشر » .

رب قائل يقول : « هذا كلام يختص بالدفاع عن الفقراء متى كانوا مظلومين » . لا أجادل فى ذلك ، ولكن ينبغى أن يكون هذا دافعاً لك إلى السخاء . لأن من يعنى بالفقراء متى كانوا مظلومين ، يحفظ لمن يحسن إليهم أعظم مكافأة .

وإذا كان من يحتقر المسكين يغضب من خلقه ، فمن يهتم بالخليقة يكرم خالقها . ومتى سمعت : « أن الفقير والغنى تلاقيا وأن الله خالق كليهما » فلا تتصور أن الله خلق أحدهما غنيًّا والآخر فقيراً ، فتتعاظم على الفقير . كلا . لا دليل على أن هذا الاختلاف آتٍ من قبل الله . فالكتاب المقدس يقول : كلاهما خليقة الله . وإن اختلفت حالهما الخارجية — فعسى هذه الحقيقة تلين قلبك وتدفعك إلى حب إخوتك ، حتى إذا خطر ببالك أحد المشهدين فاستكبرت ، تذكرت المشهد الثانى فتواضعت واعتدلت .

ويقول الكتاب أيضاً : « من يرحم الفقير يقرض الله » فمن لا يرضى بمثل هذا المدين الذى يدفع الدين فى وقته مع أرباحه ؟ ويقول :

« الصدقة والإيمان يطهّران الخطايا ». فلنتطهّر بممارسة المحبة . ولنتخذها دواء ننظف به نفوسنا من الأوساخ والأدناس ، فتصبح بيضاء كالثلج . وأريد أن أسمعكم كلاماً آخر أفعل فى النفس : إذا لم يكن فيك كسر ، ولا جرح ولا « قرح ملتهب » ولا برص فى النفس ولا قوبة ، فاحترم من جرح وسحق لأجلنا ، بعطفك على من هو عضو من أعضاء المسيح ، وإذا حدث أن قابلك اللص ظالم النفوس ، وأنت نازل من أورشليم إلى أريحا ، أو فاجأك فى موضع آخر ، وأنت أعزل بلا سلاح ، فغطّاك بالجراح وبتّ فى حال لا تبحث فيها عن علاج ، ولا تجد سبيلا إلى الشفاء . فإذا لم تيأس من الشفاء فامض إلى المسيح فهو قادر أن يشفيك ، وتوسل إليه واشف جراحك بجراحه ، فهو يقول : « أنا خلاصك » ، « إيمانك خلصك » ، « ها قد شفيت » . وتسمع منه كلمات ملؤها عذوبة ، على أن يراك عطوفاً على المساكين :

« طوبى للرحماء فإنهم يرحمون » ، « طوبى لمن يشفق على الفقير » « طيب هو الإنسان الذى يرحم ويقرض » ، « البار يرحم كل يوم ويقرض » ؛ فلنستحق أن ندعى رحماء مشفقين . لا تقل للفقير : عد غداً ، فأعطيك . لا تجعل مسافة بين قرار العطاء وتنفيذه . المحبة وحدها لا تقبل التسويف . « اكسر خبزك للجائع ، وأنزل المساكين واللاجئين فى بيتك » . وافعل ذلك بطيبة خاطر ، لأن الكتاب يقول : « من يمارس المحبة فليمارسها بفرح » . فملاطفتك تضاعف إحسانك ، لأن ما يتم

كرهاً وغصباً سمج ثقيل ، ولتكن فى عرس لا فى مأتم ، « فيشرق منذ الصباح نورك ، ويطلع شفاؤك سريعاً » . وأى إنسان لا يحب أن يكون فى النور والشفاء ؟

إنى أتأمل ، بخشوع ، فى كيس الدراهم الذى كان المسيح يتصدق منه ، وأقدر ما تم بين بطرس وبولس من الاتفاق على تقسيم عمل بشارة الإنجيل ، وتعميم العناية بالمساكين . وأحترم تحديد الكمال الذى عرضه الرب على الشاب الغنى بأن يوزع ماله على الفقراء . أتظن أنك مخيَّر بين أن تمارس المحبة أو لا تمارسها ؟ أتظن أنها مشورة لا وصية ؟ كنت أتمنى أن تكون كذلك ، ولكن أمراً يمنعنى هو الخوف من أن أقف فى الدينونة الأخيرة بين أهل الشمال ، من جانب الجداء ، وأن يطردنى من أوقفنى فى ذلك الجانب . فإن هؤلاء لم يحكم عليهم بهذا الموقف لأنهم سرقوا ، أو نهبوا ، أو زنوا ، أو أتوا أى فعل آخر من المنكرات ، ولكن لأنهم لم يخدموا المسيح بأشخاص المساكين .

فإذا صدقتمونى يا عباد الله ، يا إخوة المسيح ، وشركاءه فى الميراث الأبدى ، فهلموا بنا نزور المسيح ، ونعتنى بالمسيح ، ونطعم المسيح ، ونكسو المسيح ، ونؤوى المسيح ، ونكرم المسيح ، لا بأن نجلسه إلى مائدتنا فحسب ، ولا بأن نصب عليه طيباً ، كمريم المجدلية ، ولا أن نقدم له قبراً كيوسف الرامى ، أو نحضر له ما يلزم لدفنه مثل نيقوديموس

الذى لم يحب المسيح إلا نصف محبة ، ولا أن نقدم له الذهب والبخور والمر كما فعل المجوس قبل جميع من ذكرت . ولكن بما أن سيد هذا العالم « يريد رحمة لا ذبيحة » ، وبما أن الطيبة أفضل من ذبيحة ألف خروف فلنقدمها لهذا السيد بواسطة الفقراء والمساكين المطروحين على الأرض ، حتى إذا انتقلنا من هذه الأرض « يقبلوننا فى المظال الأبدية » بالمسيح نفسه ربنا الذى له المجد إلى دهر الدهور آمين .

# إن فى الله ثلاثة أقانيم
# وإن المسيح إله

إنى أسير فى طريق هذه الحياة

محاولا جهدى أن أقنع الآخرين

بأن يعبدوا الآب والابن والروح القدس

لاهوتاً واحداً وقدرة واحدة .

( خطاب ٣١ ، ٣٣ )

# ما هو الثالوث ؟

يلقب غريغوريوس النزينزى فى الكنيسة الشرقية «بغريغوريوس اللاهوتى» على أنه لم يؤلف كتاباً كاملا فى التعليم المسيحى . ولكنه علم فى الجيل الرابع ما كان يدعى علم اللاهوت أى عقيدة الثالوث الأقدس ، ودافع عنها دفاع المعلم الماهر ضد الأريوسية ، ووقف حياته على هذه المهمة ، ولا سيما فى القسطنطينية ، حيث اصطدم بالأريوسيين وكاد يفقد فيها حياته . والنص الآتى هو من ذلك التاريخ . يقول :

الناس من جهة الاعتقاد باللاهوت ثلاثة : فريق ينكر وجود الله ، وفريق يعتقد بوجود آلهة كثيرة، أو بإله واحد .

فإن لم يكن هناك إله ، فلا نظام فى الكون . وإن كان هناك آلهة كثيرة ، شملت الفوضى كل شىء .

أما نحن فنعبد إلهاً واحداً ، لكن وحدته ليست وحدة مقصورة على أقنوم واحد . لأن شخصاً واحداً يمكن أن يكون فى نزاع مع ذاته فيصبح متعدداً .

إن وحدة الله قائمة بتساوى العظمة والطبيعة واتحاد الإرادة المشترك ، وعينية الحركة ، وعودة من يصدرون عن الوحدة إلى الوحدة، مما يستحيل فى طبيعة مخلوقة . فلهذا تنزع الوحدة دائماً إلى الثنوية وتتوقف فى الثالوث . فعندنا الآب ، والابن ، والروح القدس . الأول هو أب وأصل ،لكن بدون شهوة ،وخارج عن الزمان ، بنوع روحانى . أما الاثنان الآخران ، فأحدهما مولود والثانى منبثق ، أو لا أدرى

كيف أعبر ، لأننا على بعد مطلق من الأشياء المنظورة . وهكذا مع بقائنا فى حدود إيماننا ، نؤمن بوجود من هو غير مولود ، ومن هو مولود ، ومن هو منبثق .

( خطاب ٢٩ ، ٢ )

## الأقانيم الإلهية

فى النص الآتى يتوصل غريغوريوس بعد تردد إلى صورة التحديد اللاهوتية ، وهى تميز الأقانيم الثلاثة فيما بينها تميزاً « نسبياً » أما فيما عدا ذلك فليسوا إلا واحداً فى طبيعة إلهية واحدة :

يقال : « ماذا ينقص الروح القدس حتى يكون الابن؟ إن لم ينقصه شيء يصبح الابن » فنجيب : إنه لا ينقصه شيء — لأنه لا ينقص الله شيء — ولكن هو اختلاف المظهر ، إن جاز لى القول ، أو الأفضل هو تميز العلاقات بين الأقانيم الثلاثة الذى يسبب اختلاف أسمائهم .

الثلاثة هم واحد من حيث اللاهوت ، والوحدة هى ثالوث من حيث الخواص . لا ينقص الابن شيء حتى يكون الآب ، لأن الولادة ليست نقصاً ، ومع ذلك ، فليس هو الآب ، أو على هذا الاعتبار ، ينقص الآب شيء ما حتى يكون الابن وهو أن الآب ليس الابن .

فليس هناك نقص ولا دونية من حيث الجوهر ، ولكن التعابير « غير مولود » و « مولود » و « منبثق » تميز الآب والابن والروح القدس . فنحافظ بذلك على تميز الأقانيم فى الطبيعة الواحدة وعلى العظمة الواحدة فى اللاهوت .

( خطاب ٣١ ، ٩ )

# لاهوت وناسوت المسيح

اتخذ الأقنوم الثانى بتجسده كل أسقامنا ماعدا الخطيئة ، فوجد الهراطقة فى تواضع التجسد : حجة للقول إن الابن ليس الله وإن هذا التذلل لايليق باللاهوت . فغريغوريوس فى هذا النص الآتى يجلو الحقيقة بقوة وسمو وإقناع : هنا طبيعتان ، الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية متحدتان فى شخص ابن الله المتجسد .

إن ما تحتقره الآن كان قديماً فوقك ، وما كانه قديماً فقد بقيه ، واتخذ ما لم يكنه . وُلد ولكنه كان مولوداً منذ الأزل ، ولد من امرأة ، ولكنها عذراء : فثمة لاهوت وناسوت معاً ، ليس له على الأرض أب ، ولا له فى السماء أم : هذا ما يختص باللاهوت فقط . حملته أمه فى حشاها ، ولكن عرفه النبي وهو فى حشا أمه واهتز مسروراً لمجىء الكلمة خالقه . لفّف بالقمط ولكنه خرج من الكفن عند قيامته . أنيم فى معلف ولكن مجّدته الملائكة ، وبشر بميلاده نجم ، وسجد له مجوس . لم يكن له عند اليهود منظر ولاجمال وكان عند داود بهيًّا أجمل من أبناء البشر ، وسطع على الجبل أكثر إشراقاً من الشمس . واعتمد كإنسان ومحا الخطايا كإله . جُرب بكونه إنساناً وانتصر بكونه إلهاً وهو يدعونا إلى الثقة لأنه غلب العالم . جاع ولكنه أشبع جماهير ، وهو خبز السماء الحى ، وعطش ولكنه صاح قائلا : من كان عطشان فليأتِ إلى ويشرب ، ووعد من يؤمنون به أنهم يصبحون ينابيع ماء

- حي . عانى التعب ، ولكنه راحة التعبين والمثقلين . كان مثقلا بالنعاس ومشى على البحر ، وزجر الرياح ، وأنهض بطرس ، وقد كاد يغرق فى الماء ، دفع الضريبة ولكنه أخرج المال من حلق السمك ، وهو سيد من يطالبونه بدفع الضريبة . قالوا : إنه سامرى ، وإنه « مسكون » ولكنه خلص من كان نازلا من أورشليم فوقع بين أيدى اللصوص ، وعرفته الشياطين فهربت من وجهه . أرادوا أن يرجموه ولكنهم لم يقدروا أن يصيبوه . يصلى ، ويستجيب صلاة من يدعوه . يبكى ويكفكف دموع الباكين . يسأل أين وضعتم ألعازر ، لأنه إنسان ، ويبعثه حيًّا لأنه إله . بيع بثمن بخس بثلاثين من الفضة ، ولكنه اشترى البشرية بثمن عظيم بثمن دمه . يقاد كالنعجة إلى الذبح وهو راعى إسرائيل وراعى الأرض كلها . صار كالحمل وهو الكلمة التى بشر بها صوت صارخ فى البرية ! هو عليل وجريح ويشفى كل مرض وعلة . رفع على عود الصليب وسمر عليه ، ولكنه يعيد لنا حقنا فى شجرة الحياة ؛ يخلص اللص المصلوب بجانبه ويغرق فى الظلمة جميع المنظورات . سقى خلا ومرًّا ، ولكن من ذا ؟ هو من يحول الماء خمراً . . . أسلم نفسه وله السلطان لأن يستعيدها . انشق حجاب الهيكل عند موته ، وتصدعت الصخور ، وقام الموتى من القبور . يموت ولكنه يحيي ، وبموته هدم الموت ، دفن ولكنه قام . نزل إلى الجحيم ولكنه أخرج منه نفوس الأبرار وصعد إلى السماء وسوف يأتى ليدين الأحياء والأموات ويخزى أدلة المارقين .

فإن يكن فى الكتاب نصوص تكون لكم علة للضلال ، ففيه نصوص أخرى تزيل الضلال . فنسألكم باسم المسيح ، ونرجوكم أن تتصالحوا مع الله ، « ولا تطفئوا الروح » أو بالأحرى أن يصالحكم المسيح وينير الروح عقولكم . وإن ينتصر روح الخصام فعسانا نحن على الأقل ننقذ الثالوث ، ونخلص به ، ونظل ثابتين أطهاراً بدون خطيئة إلى ظهور من هو موضوع رجائنا ، بالمسيح ربنا الذى له المجد إلى دهر الدهور .

( خطاب ٢٩ ، ١٩ - ٢١)

## فهرست

الصفحة

الصفحة



تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢


0005482